رواية — EXTERMINATION

الإبادة

بهاء الغرايبة

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الإبادة

الكتـــــاب: الإبادة

المـــؤلـــف: بهاء الغرايبة

تنسيق داخلي: سندس فخري

الطبعة الأولـى: يناير 2020

رقم الإيــداع: 2019/26518

I .S .B .N: 978-977-992-069-6

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

الإبادة

رواية

بهاء الغرايبة

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الإهداء

إلى الذين اَغتيلَت أحلامهم

قرعت السكرتيرة باب مكتبه، كان ينظر من النافذة إلى مجموعة من الأطفال، كانوا يلعبون كرة القدم في الحديقة المجاورة، تناهى إلى سمعه همسٌ خافت آتٍ من أيام بعيدة: مارادونا مارادونا، ابتسم، ودَّ لو يخرج ويشاركهم...

طرقت السكرتيرة الباب بقوة أكبر مُخرجة إياه من لُجَّة أفكاره، التفت إليها باسمًا، أشار إليها أن تقترب، ناولته التقرير، اكفهرَّ وجهه لما وقعت عيناه عليه، زفر تنهيدة عميقة، يجب أن يتَّخذ قرارًا، لا مناص، هذه ثالث مرة يُعرض فيها المشروع عليه، وبذلك فللمجلس الحق بتشغيل الجهاز...

يهدف المشروع إلى إبادة سكان الوطن العربي! فبعد دراسة أجراها باحثون على مدى خمس سنوات، خلُصوا إلى أن العرب لن يرتقوا أبدًا لمستوى العالم الحديث، بل سيكونوا عدوَّه الأول في المستقبل، لذا أوصى الباحثون بالتخلُّص منهم، ومنح أرضهم (لروبوتات) متطوِّرة صُنِعَت في الآونة الأخيرة؛ سيحصلون على خيرات تلك الأراضي بتكلفةٍ زهيدة، وسيأمنون على الحضارة.

كان المشروع مُربِحًا بحسب الدراسة، ولا شيء سيقف في وجهه سوى رئيس مجلس الإدارة، فهو من أصلٍ عربيٍّ.

أمسك الدكتور قلمه متردِّدًا، سَهَمَ لا يلوي على شيء...

- دكتور لقد أضاءوا الجهاز.

بدأ العدُّ التنازلي:

١٠

٩

آخذت الشمس تسقط غربًا، صار الطقس جميلًا، كان المزارعون يضعون أقفاص الفاكهة في صناديق سيارات النقل. حملَ صناديق المشمش أولاً، ثم عاد لينقل صناديق الخوخ والبرقوق والكرز، كانت المسافة بين البستان وبين (بيك أب) العم حمدان ٧٠٠م، لا يستطيع الاقتراب أكثر من ذلك؛ فالطرق بين البساتين ضيّقة وغير مستوية.

حملت الجدة صندوق خوخ ونهضت كي تساعده، بعد أن انتهت من ترتيب الثمار في الصناديق، ركض نحوها مسرعًا حين رآها تفعل، أخذ الصندوق من يدها، اقترب من جبينها وقبّله، كان لوجهها رائحة الأرض والثمار...

- ارتاحي يا جدتي، إنني على وشك الانتهاء.

- دعني أساعدك يا بنيَّ، لن أحمل الكثير، صندوق واحد في كل مرة.

- لا، اذهبي إلى النبع، اغسلي وجهك واشربي ريثما أكمل.

- لقد أُنهِكتَ يا بنيَّ، جسدك يسبح في عرقه.

- أنا رجل، والرجال لا يتعبون.

- وزينة الرجال.

قبضت الجدة على عكّازها الذي صنعه لها من جذع شجرة بلوط. هبطت نحو النبع، أسفل البستان. كانت تنظر إلى أشجار التين والرمان، كانت تبتسم وتحمد الله، الثمر في هذه السنة وفير، إن هذا من حُسْنِ حظِّ حفيدها، ستجمع له مبلغًا لا بأس به مع نهاية السنة، ستضمُّه إلى المبلغ السابق الذي بدأت بتوفيره منذ خمس سنوات، لا تعلم كم أصبح، فهي لا تُجيد الحساب، تؤمن أن هذا أفضل، فمعرفة كمِّ النقود يُذهب بركتها.

زمجر بوق سيارة العم حمدان بغضب، أدرك أنه تأخَّر فراح يُهرول وهو يحمل ثلاثة صناديق من البرقوق، في أثناء ركضه كان يتخيَّل الصخور على جَنبي الطريق ووسطها مدافعين يرومون منعه من إحراز هدف، كان يراوغهم بمهارة، يعبر بينهم مثل شبح، ولما يصل شجرة الزيتون المنتصبة في آخر الطريق، يُدخِل الكرة من فرجةٍ أسفل ساقها، تحيّيه أشجار الرمّان، التي تأخذ دور الجماهير الغفيرة في هذه الرحلة، بحرارة.

خرج إلى الطريق المعبَّد فرأى تجهُّم العم حمدان الذي بدَّد نشوته...

- عجِّل يا أحمد، نريد أن نلحق السوق.

ناول عليًّا، ابن العم حمدان، الصناديق وعاد مسرعًا ليكمل عمله، كان خفيفًا هذه المرة، راوغ الصخور بيُسر، كان يتحكَّم بالكُرة وكأنها مشدودة إلى قدمه اليسرى بخيط، «لن يقوى أحدٌ على أخذكِ منّي»، كان يخاطبها...

- كيف حالك يا أحمد؟

سمع صوتًا ناعمًا أفقده تركيزه، التفت فتعثَّرت قدمه بغصنٍ يابس، سقط وسط ضحك جميلة، ابنة جارهم في البستان، العم مصطفى. كانت جميلة تناكفه دائمًا كلما التقيا في الطريق بعيدًا عن أعين العم مصطفى، لقد حرَّم عليها اللعب مع أحمد ولا تعلم لماذا، فأحمد يقوم بمساعدته في الحراثة والتعشيب وسِقاية الأشجار، ويثني على عزيمته وجَلده.

نهض وراح ينفُض التراب عن بنطاله، فَطِنَ إلى أن بنطاله ممزَّق في أكثر من مكان، اعتراه خجلٌ شديد، لم يرفع ظهره، خشي أن تقع عينا جميلة على ثيابه البالية...

- أحمد، هل أنت بخير؟

ابتدرته جميلة، بدأ صوتها يصبح أكثر نعومة ويُخلِّف أثرًا في نفسه، شعورًا جميلًا لا يدري كيف يعبِّر عنه.

- أجل.

آجاب بصوتٍ خجول، ثم ركض هاربًا...

- أحمد، ألا تريد أن تلعب معي؟

- عليَّ أن أكمل نقل الصناديق.

تسمَّرت جميلة في منتصف الطريق وظلَّت تسخر منه، لا يوجد طريق آخر يسلكه، أحجَمَ عن مراوغة الصخور في حضرتها، استغرب هذا الشعور الذي ينتابه، فجميلة صديقته منذ نعومة أظفارهما، إنها تعرفه جيدًا، لطالما رأت أسماله المرقَّعة ووجهه الذي يرشح عرقًا، والأهم أنه كان دائمًا يلعب معها بالكرة، كانت في البداية تعارض، تقول إنها فتاة والفتاة يجب ألَّا تلعب الكرة، ولكنه نجح في إقناعها، ومذَّاك شرع يعلِّمها كيف تستقبل الكرة وكيف تهيؤها ثم تسددها بقوة، استمرا باللعب معًا حتى منعها العم مصطفى، رآها ذات يوم وهي تحاول أخذ الكرة من أحمد وجسدها يكاد يلتصق بجسده، فانتفض غاضبًا وصرخ بها، شدَّ أذنها وحرَّج عليها لعب الكرة مجدَّدًا، كانت تبكي وأحمد يقف حائرًا لا يدري ما يفعل، اقترب من العم مصطفى الذي طرده... انتابه وقتذاك حزن مُمِضٌّ، ركض إلى الجدة ودموعه تسحُّ على وجنتيه، احتضنته وهوَّنت عليه كعادتها، ثم طلبت منه بصوتها الدافئ، بعد أن عرفت سبب بكائه، التماس العذر للعم مصطفى، فجميلة ابنته وعليه تربيتها وإلا شبَّت على السوء. نجحت الجدة كالعادة في تطييب خاطره.

أكمل نقل الصناديق، سجَّل العم حمدان عددها، ٢٥ صندوقًا، سيدفع له ثمنها عقب عودته من (الحسبة)، كان يسمع هذا الاسم دائمًا، سأل الجدة عنه فأخبرته أنه سوق يقصده التجَّار ببضائعهم ويبيعونها لتجَّارٍ آخرين، لم يفهم، نما في نفسه فضول كبير لرؤية هذا المكان، بيد أنه إلى الآن لم يره.

كانت جميلة ما زالت تقعد في منتصف الطريق حين عاد...

- الله يعطيك العافية.

لفتت هذه الجملة نظره إلى أن جميلة قد كبرت، لم تعد تلك الطفلة الصغيرة، بل باتت فتاة لها شعرٌ طويل ناعم ووجهٌ جميل جدًّا. تساءل في نفسه، ترى متى كبرت؟ لقد كبرت بسرعة، يبدو أنها سبقتني في ذلك.

- ما بالك تحدِّق فيَّ كالأبله؟

بزغ في داخله شعور مغاير عن شعور الصداقة، ابتسم لمداعباتها...

- جميلة؟

- أخيرًا تكلمت! ظننتك فقدت لسانك.

سمعا نداءً عاليًا بصوتٍ أجش، كان صوت العم مصطفى ينادي جميلة التي ارتعدت وهرولت إلى أبيها تاركةً المكان يسبح في عبقٍ مزيجٍ من الورد الجوري والياسمين. تبعها بعينيه، كان شعرها المربوط كذيل فرس يرقص فوق ظهرها. غضَّ بصره مانعًا الشيطان من استغلال فرصة الضعف التي اجتاحته، كانت جدته تقول: يجب على الجار أن يكون سترَ الجار، وحذَّرته كثيرًا من الإساءة إلى الجيران، وكلام جدته مقدَّسٌ عنده...

كان المزارعون قد بدأوا يعودون إلى بيوتهم، كثيرٌ منهم يسيرون على أقدامهم ويحملون حاجياتهم فوق ظهورهم أو على الحمير، الرعاة يهبطون من رءوس الجبال الخضراء تسبقهم الماشية، مع مجيء الليل في الصيف تعود الحياة إلى القرية بعد هجرة ساكنيها لها طوال النهار...

نسي نفسه في البقعة التي سحرتها جميلة، أتت الجدة، سألته عمَّا يفعله، كذب بأنه جلس ليرتاح قليلًا. دعت له الجدة بالصحة، أعطته عبوَّةً ملأتها من ماء النبع ليشرب، عبَّ منها ماءً باردًا، ثم شطف وجهه ليستفيق من حلمه الجميل. أمسك يد الجدة وقفلا عائدين إلى الغرفة التي يقطنانها.

٢

مع غروب شمس هذا اليوم، أدرك أن الزمن يعبر سريعًا، وأنه حتى الآن لم يحقق حلمه، كان هذا حقيقة عليه الاعتراف بها، حقيقة فجَّرتها جميلة، جميلة التي لم تبرح خياله.

خرجت الجدة من الحمَّام الصغير البعيد عن الغرفة، دلفت إلى الداخل فرأته شاردًا، عرفت أن ثمَّة ما يشغله، أشفقت عليه، اقتربت منه، جلست بجانبه فوق المرتبة المحشوَّة بالصوف، مسَّدت على رأسه...

- يبدو أنك تعبت كثيرًا اليوم يا ولدي.

أطلق سراح تنهيدةً عميقة قبل أن يجيب:

- لا، لم أتعب أبدًا، إن العمل في الأرض يمتعني، تعلمين أنني أحب الأرض كثيرًا.
- وهي تحبك أيضًا، الأرض تشعر بالحب وتعرف جيدًا كيف تبادل حبًّا بحب.
- جدتي.
- نعم يا ولدي.
- هل صرتُ كبيرًا؟
- ما الذي دفعك للتفكير بهذا؟
- أودُّ المعرفة فقط.
- إنك رجلٌ من يومك يا ولدي.
- جدتي، أعرف ذلك، ولكن أعني، حقيقة، هل صرتُ كبيرًا؟
- لا أعرف بماذا أجيبك.
- حسنًا، هل أستطيع أن أتزوج؟

عجزت الجدة عن كتم ضحكتها، معيار النضج في القرية يُقاس بالقدرة على الزواج، خشي أن تجيب الجدة بالإيجاب، فذلك يعني أن حلمه قد صار حقًّا في خطر...

- في الحقيقة... أنت وحدك من يستطيع الحكم على ذلك، ولكن لا أعتقد أنك...

لم تكمل الجدة جملتها، خافت أن تجرحه، تعلم تمامًا كم هو حسَّاس، غير أنه فاجأها...

- أرجوكِ لا تخافي، أكملي، لا تعتقدين أنني قادر على الزواج، أليس كذلك؟

ولما رأت الجدة حماسته لسماع هذا الجواب، أومأت أن بلى. ابتهج قلبه، فما زال في الحلم روح...

- أحمد.
- نعم يا جدتي.
- من هي التي تريد أن تتزوجها؟

ضحك. استحضر سؤال الجدة طيف جميلة، اجتهد كي يهرب منه...

- هل هي جميلة؟

استفهمته، ثم أردفت باسمة لما لم يُجِبْ:

- أمامك طريق طويل يا ولدي.

أنهت الجدة بهذه الجملة الحوار ونهضت كي تصلي العشاء. حسبَ عمره عشرات المرات، لقد بلغ منذ أسبوع الحادية عشرة، ومع انتهاء الإجازة الصيفية سيُرفَع إلى الصف السابع، مما يعني أنه سينتقل إلى المدرسة الجديدة، المدرسة الخاصة بالذكور فقط، لن يرى جميلة مجدَّدًا في المدرسة، لا بأس سيلتقيان دائمًا في البستان.

ساوره القلق، ففي المدرسة الجديدة سيكون الأصغر، والتلاميذ الكبار هم الذين يسيطرون على فريق كرة القدم، إنه يحلم بأن يصير كابتن فريق المدرسة بدايةً، ثم أن يلتحق بأحد الأندية لاحقًا، لعلَّه ينجح في إقناع مُعلِّم الرياضة بذلك حينما يرى مهاراته، الجميع يُثني على مهاراته وسرعته، لقد تعلَّم أن الحلم يعني القتال، وأن لا حلمَ سيتحقق دون خوض الكثير من المعارك.

بسطت الجدة مفرش الطعام الوحيد الذي تملكه، أخرجت كرات اللَّبنة الغارقة في زيت الزيتون من مرطبان، ثم ملأت صحنًا آخرَ بمخلل الزيتون (الرَّصيع)، وصحنًا آخر بمكدوس الباذنجان المحشو بالجوز، أكثرتْ من مكدوس الباذنجان فأحمد يحبه جدًّا، دكّت بابور الجاز، وضعت فوقه إبريق الشاي. رنت إليه، كان يغطُّ في النوم، لم يُطعها قلبها في إيقاظه. أطفأت البابور، أعادت الطعام إلى المرطبانات، تركت الفانوس مضاءً، سحبت غطاءين، فردت الأول عليه، ثم تمددت فوق فرشتها.

كانت قدماها تؤلمانها كثيرًا، لكنها لم تشأ أن تثير خوفه. دعت الله أن يمدَّ في عمرها لكي تطمئن على حفيدها، فلا أحد له - بعد الله - سواها.

٣

استيقظت الجدة على صوت العم مصطفى وهو ينادي لصلاة الفجر، قصدت الحمَّام كي تتوضأ، كان الطريق مظلمًا، كانت تتحسَّسُ بعكازها مواضع السير، نظرت إلى البيوت المجاورة التي تضيئها الكهرباء، داهمها الحزن، فلو وجدت من يُعينها ويمدُّ لها الكهرباء، لكانت ارتاحت كثيرًا.

تململ في فراشه. كان يعتريه شعورٌ غريب، خُيِّلَ إليه أنه كان نائمًا بجانب أحدهم، ظل هذا الهاجس يراوده طوال الليل، ليس أي أحد، ولكن هي على وجه التحديد: جميلة. استعاذ من الشيطان. كان الدم يتدفَّق غزيرًا في أوردته.

رجعت الجدة فوجدته مستيقظًا...

- صحوت يا ولدي؟

- صباح الخير يا جدتي.

- صباح الرضا يا ولدي، ستذهب إلى المسجد؟

- أجل.

- هل تريد تناول طعام الفطور الآن أم بعد أن ترجع؟

- أووه نسيت، لقد نمت دون عشاء. لا بأس، سنأكل حين أعود من الصلاة.

كانت الطرقات خالية، كان يسير وسط النسيم المُحمَّل بروائح الأعشاب وأوراق الأشجار والتراب المبتل بقطرات الندى. كان يفكر في مباراة اليوم التي سيخوضها ضد فريق البلدة المجاورة، دعا الله أن يأتي مُعلِّم الرياضة ليرى مهارته. في الحقيقة مُعلِّم الرياضة لا يهتم بالصغار، إنه يحضر في حال كان ثمَّة مباراة للكبار، لأنه يشاركهم في اللعب.

لمح طيف أحدهم، لم يكن يتَّجه إلى المسجد. عرفه لما اقترب، كان العم سلطان، كان يمشي مشيةً مترنحة. سأله بصوتٍ متهدِّج:

- من أنت يا فتى؟

كان العم سلطان خفيف الظل ويحب أن يتحدَّث بالفصحى، وكان يحفظ الكثير من الأغاني، وحين رأى العم سلطان أحمد وعرفه هتف بحرارة:

- أحمد، الله يرضى عليك، ذاهب إلى الصلاة؟

- أجل.

- وأنا أيضًا كنت في صلاة.

قال العم سلطان هذه الجملة وغرق في الضحك، ثم أردف:

- كيف حال أمينة؟

- إنها بخير، الحمد لله.

- ألا تريد أن تتزوج؟ أخبرها أنني لا زلت على العهد.

أطلق العم سلطان ضحكته مجدَّدًا. أدخل يده في جيبه، طلب منه الاقتراب وفتح كفَّيه، ملأهما بالمكسرات، شكره أحمد كثيرًا، ولمَّا نظر في عينيه، رأى فيهما التماعًا، ظن أن العم سلطان ليس بخير...

- هل أنت بخير يا عم سلطان؟

مسح العم سلطان عينيه بظاهر يده ثم أجاب:

- بخير بخير، هيَّا، امضِ إلى صلاتك وأخبرني إن احتجت شيئًا.

لم يعلم سبب حزن العم سلطان، ما كان ليدري أنه هو بالذات سبب هذا الحزن، ابتلع الظلام العم سلطان، وضع المكسرات في جيبه، سيُطعِم الجدة منها، صحيحٌ أنها فقدت معظم أسنانها، لكنها تملك قواطع ذهبية قويَّة كانت صنعتها لها إحدى الغجريَّات.

لم يكن في المسجد سوى عشرة مُصلين، وكان هو الفتى الوحيد، أما البقية فشيوخ كبار السِّن، أخذ المصحف بعد أن صلَّى السُّنة، وشرع يقرأ. لم يكن متفوقًا في المدرسة، كان ضمن الوسط، لم تلحظ إحدى المعلِّمات شيئًا مميزًا فيه، إنه مثل جُلّ أطفال القرية، ولولا جدته ما كان ليواصل التعليم، إنها تُلحُّ عليه ليلًا ونهارًا أن يجتهد في المدرسة، فالعلم سلاح، هذا ما دأبت الجدة الأميَّة على قوله.

خرج من المسجد، نظر إلى السماء، كانت الشمس قد بدأت ترسل قُبُلاتها إلى القرية وساكنيها، ركض إلى الغرفة، كان بعض الشباب الملتحقين بالجيش يمشون إلى منطقة وقوف السيارات التي ستقِلُّهم إلى محطات عدَّة، كان يُلقي عليهم التحيَّة فيردُّون بتثاقل. تساءل، ترى هل العمل في الأرض أصعب من العمل في الجيش لذا بدأ يلتحق به الكثير من شباب القرية؟!

دخل الغرفة، كانت الجدة قد جهَّزت طعام الإفطار، إنه طعام العشاء الذي لم يؤكل. اقترب منها، سألها أن تُغمِضَ عينيها وتفتح كفَّيها، فعلت، وضع المكسرات فيهما، فتحت الجدة عينيها، استفهمته من أين حصل عليها، فأخبرها أنها من العم سلطان، غمغمت الجدة كلمات لم يفهمها، استفسرها عمَّا قالت...

- لا شيء، دعوت الله له بالهداية.

صحيح أنه لا يرى العم سلطان في المسجد، ولطالما سمع الناس يتحدثون عنه بالسوء ويقولون إنه سِكّير، إلا أنه كان في قرارة نفسه يحبه ويحسُّ أنه يملك قلبًا كبيرًا طيِّبًا.

- جدتي.

- نعم.

- لقد سألني العم سلطان إن كنتِ تقبلين به زوجًا.

ابتسمت الجدة ولم تجب، اقتحمت أنفيهما رائحة الخبز المنبعثة من فرن الطابون المجاور. للأسف لم تعد الجدة قادرة على صنع الخبز، صارا ينتظران أن يُزوِّدهما به الجيران. نهض وقصد فرن الطابون ليرى من التي تخبز. تحب الجدة الخبز الطازج كثيرًا وهو أيضًا، ولن تمانع المرأة التي تخبز من إعطائه رغيفين.

دنا من الفرن المبني من الحجر والطين على هيئة غرفة صغيرة، بداخلها قالب مصنوع من التراب والتبن والماء، مفتوح من السقف لإدخال الخبز وإخراجه، ومن أحد الجوانب لوضع الحطب، ومفروش بحجارة دائرية ملساء. استرق السمع، خفق قلبه بسرعة حين سمع صوت جميلة، دار ووقف في وصيد الفرن، التفتت إليه الخالة وضحى وجميلة التي كانت تجلس على حَجْر الخبَّازة، تبادلا النظرات بعد أن اكتسى وجهيهما بالحياء. لقد تأكدت ظنونه، كبرت جميلة وها هي تعدُّ الخبز في الطابون.

- أهلًا أحمد، أتريد الخبز؟

أومأ ببلاهة وسط ضحك جميلة وزجر أمها. ناولته رغيفين، ولما ظل واقفًا سألته إن كان يحتاج شيئًا آخر، أومأ مجدَّدًا ببلاهة أن لا، أشارت إليه أن يذهب لتتمكَّن جدته من تناول الخبز الساخن. راح يشمُّ الرغيفين بنهم شديد، فهما من صنع جميلة.

أخبر الجدة أنه فوجئ بجميلة تخبز، ردَّت عليه بأن الفتيات يكبرن أسرع من الفتيان، وجميلة باتت عروسًا وعليها أن تُتقِن أعمال البيت قبل أن تتزوج...

- ومن ستتزوج؟

- لا أعلم، ولكنها مع هذا الجمال لن تتأخر.

عجز عن تفسير سبب الحزن الذي اعتراه، حتى إنه لم يكمل صحن مكدوس الباذنجان كعادته، كان يشعر بضيق في صدره، تمنى أن يتلاشى مع زفراته السريعة في أثناء المباراة.

كان الملعب الوحيد في القرية تابعًا لمدرسة الذكور، وكان بعد العصر يُحجَز للفتيان الأكبر سنًّا، لذا كان الأصغر مضطرين للّعب في الصباح قبل ارتفاع حرارة الشمس، والأهم قبل الإجبار على الذهاب إلى البساتين والكروم.

ارتدى سروالًا رياضيًّا قصيرًا، كان في السابق بنطالًا ولكن الجدة قصَّت أطرافه وأعادت خياطته بعد أن بَلِيَ، وكنزة حمراء، وجوربين مثقوبين من المقدِّمة، وحذاءً رياضيًّا يُمناه مثقوبةٌ من أسفل ويُسراه من الجانب. ستجري المباراة في تمام العاشرة، باقٍ على الموعد ساعتان. طلبت منه الجدة الذهاب ورؤية إن كان العم حمدان قد عاد من السوق، ركض بأقصى سرعته إلى بيت العم حمدان، كان المارَّة يلتفتون إليه ويضحكون، لا على ثيابه، فمعظم ساكني القرية فقراء، ولكن على طريقة جريه وكيفية تحريكه جسده.

كان (بيك أب) العم حمدان قبالة المخبز، رآه العم حمدان فأشار إليه أن يأتي، نقده ثمن صناديق الفاكهة وسأله إن كانوا سيقطفون الثمار اليوم، أجابه أن لا، فلقد اعتادا على قطف الثمار يومًا بعد يوم، أخذ النقود وعاد يجري إلى غرفة الجدة. أعطاها إياها، استفسر منها إن كانت بحاجة لشيء، ولما أبلغته أنها ستأخذ قيلولة، خرج إلى الملعب كي يتمرَّن قبل بدء المباراة.

كان في المدرسة بعض الضجَّة، خشيَ أن يكون الحارس موجودًا؛ لأنه سيمنعهم من اللعب. تسلَّل من جانب السور، اختلس النظر، كاد قلبه يطفر من صدره، كان المعلِّمون يهيِّئون المدرسة استعدادًا لبدء العام الدراسي الجديد والاحتفال بعيد ميلاد الحاكم، وكان من بينهم الأستاذ نصير، مُعلِّم الرياضة.

٤

اكتمل وصول لاعبي الفريقين، منعهم يحيى - حارس المدرسة - من اللعب، انكسر قلبه وحلمه، نظر بعينين راجيتين إلى الأستاذ نصير، لم يكترث، دمعت عيناه وأوشك أن يبكي، سمعوا صوتًا يدعوهم أن يقتربوا، كان صوت الأستاذ هيثم، مدرّس العلوم الجديد، سألهم لماذا لم يلعبوا، أخبروه أن الحارس طردهم، ذهب إليه وحدَّثه، وعده بأن يراقبهم حتى تنتهي المباراة، عاد إليهم، كانوا يجلسون في فيء السور، نظروا إليه، وحين رأوا ابتسامته، استخفَّهم الفرح.

شعر بخيبة أمل كبيرة حين تجاهل الأستاذ نصير وجودهم، فقد كان يؤمِّل نفسه بمشاهدته للمباراة كي يضمَّه إلى فريق المدرسة.

كان قائد فريقه، يوجِّه أصدقاءه الذين يتَّبعون تعليماته وينفِّذونها بحذافيرها، ليقينهم بأنه أمهر لاعب في الفريق، تبرَّع الأستاذ هيثم في تحكيم المباراة، في الحقيقة أن الأستاذ هيثم هرب من أعمال التزيين التي يمقتها، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يحب كرة القدم، إنه شغوف بها، وكان يحلم منذ نعومة أظفاره بأن يصبح لاعبًا محترفًا، ولكن الأحلام هنا تبقى مجرَّد أحلام، إنها الأوطان التي تقتل حلمك أو تقتلك، والجميع يختارون قتل الحلم طبعًا.

أطلق الأستاذ هيثم صفَّارته مُعلنًا بدء المباراة، كان يحمل في نفسه روح المنافسة، يكره الخسارة في كرة القدم حتى لو كانت أمام جميلة، صحيح أنه فقد بعض حماسته لعدم حضور الأستاذ نصير المباراة، إلا أن وجود الأستاذ هيثم عوَّض بعضًا منها.

مرَّر خالد الكرة إليه، ألصقها بقدمه اليسرى وراح يموج بجسده مثل أفعى ماكرة، انبهر الأستاذ هيثم بحركاته ومهاراته وطريقة ركضه. تجاوز أربعة لاعبين، ثم سدَّد الكرة إلى الزاوية اليمنى أعلى المرمى، رفع الأستاذ هيثم يده وصافح يده، سرت الحماسة بقوة في جسده بعد هذه المصافحة. ذهب إلى يوسف وهمس في أذنه، قطع الكرة ومرَّرها إلى يوسف الذي رفعها عاليًا باتجاهه، ليسجِّل هدفًا بضربة خلفيَّة مزدوجة وسط دهشة الأستاذ هيثم، فهو لم يرَ أحدًا في البلاد كلها يملك مثل هذه الموهبة، صرخ بأعلى صوته: مارادونا.

قفز فرحًا، فمارادونا هو مَثَلُه الأعلى، كان يشاهد صورته مُعلَّقة في صالون نبيل، المشجِّع المجنون للمنتخب الأرجنتيني، كان حينما يجلس على كرسي الحلاقة يُحدِّق في وجه مارادونا، حدَّثه نبيل عنه كثيرًا، قال إنه جاء من حيٍّ شديد الفقر يشبه قريتنا، ثم قاد منتخب بلاده لإحراز لقب كأس العالم عام ١٩٨٦، حفظ تفاصيل حياة مارادونا من حديث نبيل، وسعى لتقليد شكله، لذا وبما أنه في العطلة الصيفية قرَّر إرسال شعر رأسه وتركه دون حلاقة أو تسريح، لم يكن يتصوَّر أنه صار يشبهه لهذه الدرجة.

انتهت المباراة بفوز ساحق لفريقه، ناداه الأستاذ هيثم، سأله عن عمره، أخبره أنه بلغ الحادية عشرة منذ أسبوع، نظر في عينيه وسأله بصوتٍ مفعمٍ بالأمل:

- بماذا تحلم يا مارادونا؟

أجاب بالجملة التي قالها مارادونا في صغره، والتي كان يكررها نبيل على مسمعه:

- أحلم بإحراز كأس العالم مع منتخب بلادي...

٥

شعور غريب دفعه للذهاب إلى بيت جميلة وإخبارها بأنه بات قريبًا من تحقيق حلمه، لكنه فوجئ بتجهُّم العم مصطفى وكلامه القاسي...

- اسمع يا ولد، لقد سمحتُ لك بالدخول إلى بيتي من باب الشفقة ليس إلَّا، وعلى ما يبدو أنني كنتُ مخطئًا، إياك أن تزورنا مرةً أخرى، وانسَ اسم جميلة، امسحه من عقلك للأبد، وأقسم أنني إن رأيتك تقترب منها لأجرنَّك في حواري البلدة وأزقَّتها، والآن اغرب عن وجهي.

امتدت يدٌ جبَّارة إلى قلبه وعصرته، سالت منه نشوة الفرح. رجع مهزومًا إلى الجدة، سألته ما به، حدَّثها أن العم مصطفى منعه من دخول بيته وطرده شرَّ طردة...

- جميلة لم تعد صغيرة يا أحمد، وأنت كذلك.

- ولكنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في جميلة، أريدها أن تظل بجانبي.

- ستعتاد فراقها، الزمن كفيلٌ بمحوِها من ذاكرتك مثلما مَحى غيرها.

خلع ملابس الرياضة، وضعها في طست الغسيل، سكب فوقها إبريقين من الماء، رشَّ قليلًا من مسحوق الغسيل وبدأ يفركها. عليه أن يستعد جيدًا، لقد طلب منه الأستاذ هيثم المجيء بعد العصر ليشارك في مباراة الفتية الكبار.

كان يغسل الثياب بقوة ويتمتم...

- ماذا تقول؟

- لا شيء، إنني أغنِّي.

- وماذا تغنِّي يا ولدي، أسمعني.

استحى، كان سمع أغنيةً من جهاز جارهم سعيد، الذي التحق بالجيش منذ سنة، وكان أول شيءٍ فعله لما قبض أول معاش، ابتياع مذياعٍ له سمَّاعتان كبيرتان، ظل يرهف السمع حتى تمكَّن من حفظ بعض مقاطع الأغنية التي كانت تصدح منه...

جميلة ولابسة عالشعر طاقة
سلبت عقلي، ما خلت لي طاقة
لا تقبل حب... لا تقبل صداقة
والشكوى لله حلال الشكاوى

أكمل غسل الثياب، علَّقها فوق الحبل الممدود خارج الغرفة، نظر إلى الشمس، كانت شديدة الحرارة، قدَّر أنها ستجفُّ قبل موعد المباراة، جلس جوار الجدة التي كانت تمسك بسبحةٍ طويلة وتردد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، مرارًا وتكرارًا...

- جدتي.

- نعم يا ولدي.

- إنني جائع جدًّا.

- اذهب واجلب الطعام.

نهض ومشى بخطى وئيدة إلى البقعة الرطبة في الغرفة، والتي تحفظ الجدة فيها الطعام، انفرجت أساريره حينما رأى صحنًا مترعًا بالبرغل والعدس والبصل، المجدَّرة، إنه يحب هذه الأكلة كثيرًا، كانت لا تزال ساخنة، قرَّب الصحن من أنفه، أخذ نفسًا عميقًا أسال مزيدًا من لعابه...

- من بعث هذا الطعام؟

- جلبه جعفر قبل قليل.

ارتعشت يداه وكاد الصحن يسقط من يده، جعفر شقيق جميلة الأصغر، رفع الصحن وراح يشمُّه مثل مدمن عتيد، تُرى هل تكون جميلة هي التي طهت الطعام؟ ربما تكون هي بالذات من أرسلت هذا الصحن إليه. أكلت الجدة بضع لقم ثم حمدت الله، اعتادت أن تؤثره على نفسها، راقبته وهو يأكل بشراهة، ابتسمت، ذكَّرها بأبيه لما كان في مثل عمره، تنهَّدت، ثم تمتمت «سامحه الله»...

خرج من الغرفة، تحسَّس الثياب، بدأت تجف. سأل جدته عن الوقت، خمَّنته باقتراب ارتفاع أذان العصر...

- إنها الثالثة والنصف يا ولدي.

بقيت ساعة على موعد المباراة، تسلَّل إلى الشارع وأخذ يمشي حول بيت العم مصطفى بحذر، رفع رأسه إلى النوافذ والسطح، لم يرَ أحدًا. عنَّت له فكرة مجنونة، وضع إصبعيه في فمه وأطلق صفيره الذي تعرفه جميلة، لاذ بالطيون النابت على طرف الشارع، اختلس النظر، لا شيء سوى السكون، أعاد الكرَّة، لا شيء. نهض من بين الطيون وهمَّ بالعودة إلى الغرفة، تناهى إليه صوت العم مصطفى وهو يأمر أهل بيته بالاستعجال، إنه موعد الذهاب إلى البستان، كَمُن مجدَّدًا كاتمًا أنفاسه، خرجوا من الباب، بحث عن جميلة، ظنها لم تخرج معهم، ولكن عندما اقتربوا عرفها، كانت ترتدي منديلًا يغطي شعرها، إنه دليل آخر على أن جميلة باتت كبيرة.

حمل جعفر حصى ووضعها في المقلاع، أطلقها نحو الطيون، فالحساسين تعشق هذه النبتة وتتَّخذ منها محطات للراحة، لم يصب جعفر حسونًا، بل ضبعًا كما قال العم مصطفى وهو يطارده بعصاه وسط ضحك عائلته...

- اللعنة عليك ما أسرعك.

دخل الغرفة وهو يلهث، سألته الجدة ما الخطب، أجابها بأنه يتمرَّن. أنزل الثياب عن الحبل، جفَّت إلا قليلًا، لا بأس ستجفُّ في الطريق إلى الملعب، أخذ بيد الجدة التي خرجت لتجلس أمام بيت أم سعيد، حيث تلتقي عجائز الحارة اللائي لا عمل لهن...

- لا تتأخر يا ولدي، ولا تذهب إلى أي مكان، أكمل المباراة وعُدْ فورًا.

لقد حاولتْ كثيرًا أن تثنيه عن الذهاب إلى الملعب، كان يغافلها ويذهب، ولأنها تملك شيئًا من الحكمة قرَّرت السماح له بالذهاب كي لا يعتاد مخالفتها.

- لن أتأخر يا جدتي، مع السلامة.

انضمَّت الجدة إلى حلقة الأخبار العاجلة والآجلة، ابتدرتها الحاجة صيتة قائلة:

- أعانه الله، لا أحد يسأل عنه، إنه مثل اليتيم.

٦

استخفَّ به لاعبو الفريقين، طفل صغير لا يقوى حتى على الركض، هكذا بدا لهم. ساور الأستاذ هيثم شعور بالقلق حيال لياقته، لقد لعب مباراة في الصباح ولا بُدَّ أن طاقته أو جزءًا كبيرًا منها قد استُنزِف.

بدأت المباراة، جلس حتى يتعب أحد اللاعبين أو يُصاب، فوجئ بمهارة الأستاذ هيثم، لم يكن يتصوَّر أن يرى من هو أمهر من الأستاذ نصير، كان الأستاذ هيثم سريعًا جدًّا وقويَّ الجسد، ليس من السهل أخذ الكرة منه. إنه من حسن حظه قدوم الأستاذ هيثم من المدينة للعمل والإقامة في القرية، أشار له الأستاذ هيثم كي يستعد للدخول. نهض، هزَّ قدميه قليلًا، خرج الأستاذ هيثم ودخل.

تنفس أعضاء الفريق المنافس الصعداء، لخلاصهم من الأستاذ هيثم، استلم الأستاذ نصير الكرة، أراد أن يُريَه بأنه أخطأ حين تجاهله، ركض نحوه مثل السهم، حاول الأستاذ نصير تجاوزه ففشل، قطع الكرة وسط ضحك لاعبي الفريقين، مرَّرها بعقب قدمه اليسرى إلى فيصل، الذي سدَّدها نحو المرمى، حاول فلاح، حارس مرمى الفريق المنافس الإمساك بها، أفلتت منه لتجده متربِّصًا، تمدَّد فلاح أمامه فرفعها من فوقه، هلَّل زملاؤه بالفريق...

- وَحْش يا مارادونا.

هتف الأستاذ هيثم بفرح عارم، وهكذا صار زملاؤه في الفريق ينادونه بهذا الاسم، وبعد قليل حذا أعضاء الفريق المنافس حذوهم بعد أن تيقنوا من مهارة هذا الفتى الفذِّ، اقترب منه الأستاذ نصير، سأله عن اسمه...

- أحمد حسن المحاردة.

ردَّد الأستاذ نصير الاسم وكأنه يحفظه، غمرت السعادة قلبه، لقد وضع قدمه على أول طريق الحلم، بلا شك سيضمَّه الأستاذ نصير إلى فريق المدرسة، ومن ثمَّ سيلعب في بطولة المدارس، وحينئذ ربما يراه أستاذ من الذين يدرِّبون في الأندية، وعقبها لا أحد يعلم ما الذي قد يحدث. سمع ذات مرَّة أن حسَّان - الفتى الأكثر مهارة في كرة القدم من القرية المجاورة - التحق بنادٍ يلعب في الدرجة الثانية، إلا أنه للأسف لم يكمل، فضَّل الالتحاق بالجيش، «لعب كرة القدم لا يُطعِم خبزًا في بلادنا»، كان حسَّان يردد هذه الجملة حين يُسأل عن سبب تركه للنادي، أما هو فلا يحتاج للالتحاق بالجيش كي يأكل، فخراج الأرض يكفل له ذلك، كما أن وجود الجدة يمنحه الأمان، لن تسمح للجوع بالنيل منه وهي موجودة، حتى لو أطعمته لحم جسدها، هذا ما كانت تقوله له دائمًا.

أبهرت قدراته ومهاراته لاعبي الفريقين، طلبوا منه المجيء دائمًا ليلعب معهم، ناداه الأستاذ هيثم، سأله عن أهله، أجابه بأنه يعيش مع جدته، استفسر عن والده، أحنى رأسه ولم يُجِبْ، لم يشأ الأستاذ هيثم أن يضغط عليه...

- حسنًا، لا بأس، كنت أريد أن أطلب من والدك الموافقة.

- الموافقة على ماذا؟

- على الذهاب برفقتي إلى المدينة.

- لماذا؟

- كي أمنحك الفرصة لتحقِّق ما عجزتُ عن تحقيقه.

لاحت أمارات عدم الفهم على وجهه، أوضح الأستاذ هيثم...

- هل تحب الانضمام لنادٍ؟

لم يصدق ما سمعه، ظن أن الأستاذ هيثم يمازحه ليس إلا...

- ها، ما هو رأيك؟

- بالتأكيد.
- ولكن عليَّ أخذ موافقة والدك أولًا.
- جدتي ستوافق.
- جدتك لن تفي بالغرض، يجب أن أقابل والدك.

طأطأ رأسه مخفيًا دموعه التي أطلَّت من عينيه...

- حسنًا، أنا آسف، رحمه الله.

خرج صوته متهدِّجًا من بين دموعه:

- ليس ميِّتًا.

٧

أفضى للجدة برغبة الأستاذ هيثم في مقابلة والده، انقبضت ملامحها، ظنَّت أن أمرًا جللًا قد حدث، اعتاد الناس محادثتها في شئون حفيدها، صغيرها وكبيرها. سألته عمَّن يكون الأستاذ هيثم، أخبرها أنه مُعلِّم جديد في مدرسة الذكور وهو غريبٌ عن القرية...

- لماذا يريد مقابلته؟

- لكي يقنعه بالموافقة على ذهابي معه إلى المدينة.

- في رحلة؟

- لا، ليعرضني على أحد الأندية هناك.

- أندية ماذا؟

- نادي لكرة القدم.

امتقع وجه الجدة، خُيِّل إليها أنها أخطأت حين سمحت له بالذهاب للعب مع الفتية الأكبر سنًّا منه...

- إنك تضعني في موقف سيئ يا ولدي.

- سأذهب إلى أبي وأخبره.

آخر ما تتمناه الجدة تدخُّل أبيه وأمه في حياته، هي من ربَّته وتعبت عليه مذ قرَّر والداه التخلِّي عنه. حارت فيما تفعل، هل تمنعه من اللعب؟ هل تدعو الأستاذ إلى الغرفة ليرى حالهما، ليدعهما وشأنهما؟ لكنها تعلم جيدًا أن لا شيء سيقنعه بالعدول عمَّا يفكر به، ولن تقوى على منعه من الذهاب مع الأستاذ. زفرت تنهيدة عميقة نابعةً من ضعفها، كانت تنهيدة إقرار - رغمًا عنها - بالحاجة إلى تدخُّل الأب، فهو الأقدر على وضع حدٍّ لطيش ابنه، وعلى كرهها لذلك، قرَّرت الاستعانة به...

- حسنًا، سنرى ما هو رأي أبيك؟

إنها تعلم جيدًا أنه لن يسمح بذهابه إلى أي مكان، طالما عارض ذهابه إلى الملعب، لقد كان يعنفه كثيرًا حينما كان يجده هناك، ولكن وبعد زواجه من فلحى تبدَّل كثيرًا وصار لا يطيق رؤية ابنه، ستلجأ إليه مُجبرة، إنها تُفضِّل أن يضرب ابنه ويربيه على أن يروح ويغدو مع الغرباء. لقد كبر وصار بحاجة إلى رجل يَلْجُم تمرُّدَه قبل أن يزداد الوضع سوءًا. إنها تخشى أن يتهمها الناس بالفشل في تربية حفيدها، مثلما فشلت في تربية ابنها من قبل.

ذهبا إلى بيت الأب، كانت الجدة تُفضِّل الموت على آن توضع في هذا الموقف. كانت غادرت بيت ابنها الوحيد منذ أربع سنوات ولم تزره بعدها قط. لم تغادره وحدها، بل أخذت معها حفيدها، قرَّرت أن ترجع إلى غرفتها لتبعده وتحميه من شرِّ الأفعى فلحى، زوجة ابنها الثانية، امرأة قاسية القلب، كانت لا ترحمه أبدًا، تكيل له الصفعات دون ذنب، نجحت في تأليب أبيه عليه، لم يَدُر في خلد الجدة أن فلحى كانت تخطط للخلاص منها، وأنها كانت تتَّخذ من ابن زوجها ذريعة كي تحقق غايتها، ولما ضاقت الجدة ذرعًا، ولم تعد تحتمل رؤية ظلم الأب وزوجته لحفيدها، أزمعت أمرها ورحلت عنهما. خالت أن ابنها حين يعلم بأمر رحيلها سيهرع إليها ويرجوها كي ترجع، وكم كانت مخطئة، زارها بعد أسبوع ليقنعها بأنها اختارت الحل الأفضل للجميع، وخصوصًا أحمد.

فتحت فلحى الباب، اكفهرَّ وجهها لما رأتهما، كانت تهمُّ بإغلاقه، ولكن ظهور زوجها المفاجئ أربكها، دخلت البيت وصكَّت باب غرفتها على نفسها، رحَّب حسن بأمه ببرود شديد، قدَّر أنه سيحظى بليلةٍ سيئة، ولن ينجو من لسان فلحى السليط. أحضر كرسيَّين بلاستيكيَّين، جلسا في فناء البيت. ظل أحمد واقفًا، كان يروز أباه، بدا له غريبًا عنه، لقد قطَّعت صفعاته وركلاته القوية مشاعر الودِّ التي كان يُكنُّها له...

- أهلًا أهلًا، نورتِ البيت يا أمي، ما هو سبب هذه الزيارة؟ أقصد، هل هناك شيء خطير؟

كان طوال الطريق يرجو الجدة أن تقنع الأب بالموافقة على التحاقه بالنادي، كوت دموعه فؤادها، لانت لإلحاحه، نجح في النهاية بالظفر بموافقتها ووعدها له بإقناع حسن العاق، كان أهل القرية قد أطلقوا عليه هذا اللقب بعد هجره لأمه وتركها تعيش في ظروفٍ سيئة...

- ألن تسلِّم على ابنك؟

رمقه من طرف عينه، ثم تمتم:

- تقصدين ابن الفاجرة.

غاصت الكلمة عميقًا في قلبه، أوجعه وخزها، ازدرد ريقه وحاول جاهدًا كبت دموعه التي وقفت على عتبة عينيه...

- اقصد ابنك.

- كيف حالك؟

كان هذا السؤال أشدَّ ألمًا من الشتيمة، شهق وهطلت دموعه غزيرة...

- أترين، إنه مثل فتاة؟

هبَّ واقفًا وهمَّ بضربه ولكن الجدة منعته...

- اتقِ الله في ابنك يا حسن.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، دعينا منه، حدثيني ما الأمر؟

نظرت إليه، مزَّق مشهده قلبها، أيقنت أنها أخطأت في جلبه معها، كان عليها أن تأتي وحدها. دعته للوقوف خلفها...

- هناك أستاذ يريد الحديث معك.

- في ماذا؟

حدجه بغضب، ثم أردف وهو يصرف على أسنانه:

- ما الذي فعلته يا ابن الـ...

قاطعته الجدة قبل أن يُتمَّ شتيمته:

- لم يفعل شيئًا.

صمتت، عرفت أن الأمر لن يكون سهلًا البتة، أطلقت سراح تنهيدة عميقة، ثم خاطبت ابنها بلسان الأم؛ علَّه يلين:

- اسمعني يا حسن، سيأتي الأستاذ كي توافق على ذهاب أحمد معه إلى المدينة.

- لماذا؟

- ليسجِّل أحمد في نادي لكرة القدم.

طار صوابه فور سماعه اسم كرة القدم، لم يدرِ أحمد من أين وقعت اللكمة على فمه، شعر بطعم الدم على شفتيه، ولما وعى ما حدث، ركض بأقصى سرعته وصوت نشيجه يخنق الجدة.

٨

لقد أخطأ في مرافقة الجدة إلى بيت أبيه، ما كان عليه أن يذهب. كل الذي حدث له ولم يعِ الدرس بعد، أبوه لا يعتبره ابنًا له، تلك هي الحقيقة. ولكن لماذا يا ترى؟ ما هو الجرم الذي اقترفه ليتبرَّأ منه أبوه؟ وما دام لا يعتبره ابنًا له، فلماذا يعاقبه إذن؟ أيكون بذلك يحاول الانتقام من زوجته السابقة، بضرب ابنها ليس إلا؟

كان الغروب يمسك رداء العتمة ويفرده فوق القرية رويدًا رويدًا، لا يدري كيف وصل البستان، اقتعد قاع شجرة التين الكبيرة، وضع رأسه بين قدميه. كان مهزومًا حزينًا، تمنى لو تأتي جميلة لتخفِّف عنه، رفع صوته بالبكاء علَّها تسمعه، كم يحتاج إلى حضنٍ يزرع فيه رأسه ويبكي، كم يحتاج إلى يدٍ تربِّت على قلبه المرتجف مثل عصفور وحيد أضاع بيته في ليلةٍ شديدة البرودة.

تردَّد صوت الأستاذ هيثم في أذنيه ليزيده ألمًا على ألم «لن أستطيع أخذك إلا بموافقة والدك»، لقد حاول أن يخبره أن والديه منفصلان منذ زمنٍ بعيد وأنه يعيش في غرفةٍ تشبه زريبة الماشية مع جدته، أراد أن يبوح له بعدم وجود كهرباء في غرفتهما، وأنه لولا صدقات الجيران وتبرُّعهم بالطعام لكانا تضوَّرا جوعًا، ودَّ أن يقُصَّ عليه الأوجاع التي تعتريه بفعل النظرات الجارحة التي يُقابَل بها من سكان القرية، لم ولن ينسوا، مساوئ الوالدين تورث للأبناء، ويا له من إرثٍ ثقيل!

كان أبناء القرية يعايرونه بسيرة أمه، يقولون إن أباه طلَّقها بسبب أفعالها المشينة، كانت الجدة تطوف على البيوت وتتشاجر مع آبائهم وتدعوهم لتربية أبنائهم والتوقف عن مضايقة حفيدها، نجحت في كبح سُبَاب الأطفال، غير أنها فشلت في تجنيبه مرارة النظرات التي تُدمِي قلبه الغضَّ، يظنونه لا يفهم لغة العيون، ولكنهم مخطئون، إنه يفهم ما تقوله أعينهم جيدًا، اعتاد ذلك، لا بأس، يستطيع الإنسان التأقلم مع أسوأ الظروف. نجح في التنفيس عن غضبه وكبته من خلال لعب الكرة، تلك اللعبة التي منحته شيئًا ما كان ليحصل عليه لولاها؛ القبول والتميُّز.

لقد مكَّنته الكرة من المشاركة والانصهار مع الأطفال الآخرين، قبلوه رغم سيرة أمه القميئة، إنه مكسب لأي فريق يلعب له، ومن الحماقة خسارته. منحوه صداقتهم نظير مهارته، ولم يمانعوا من الاستماع لتعليماته، إنه السبب الرئيس للفوز وينبغي تجنُّب إغضابه. إنه مدينٌ للكرة بكل شيء، وخسرانه لها يعني خسران كلِّ شيء.

كيف سيفهمون ذلك؟ كيف سيقبلون هذه الحقائق؟ الجميع يعتقدون أن الكرة مجرَّد لعبةٍ تافهة، وأن من يمارسها - بلا شك - تافه، لا يعلمون أن الكرة أكثر من مجرَّد لعبة، إنها حياة أخرى، حياة وجد فيها السعادة، حياة منحته الفرصة للتعرُّف على ذاته وحبِّها، لقد عثر على شيءٍ جعله يحب نفسه، دونها كان سيكرهها. ليس من السهل العيش في مجتمعٍ قرويٍّ وأنت تحمل ندبةً تشي بماضٍ بغيض سيظل يطاردك، سيدفعونك نحو طريقين؛ إما الموت وإما الإجرام، ولكنه لا يريد، لا يريد أن يصير مجرمًا، ولا يرغب في أن يموت الآن، لقد أرشده سهمٌ ذهبيٌّ نحو خيارٍ ثالث، خيار النجاة.

لم تؤثر فيه لكمة أبيه بقدر تأثير رفضه للعبه كرة القدم، يعلم جيدًا مدى قسوة الأب وعناده، لن يغيِّر رأيه مهما حدث، وستدفعه فلحى الخبيثة للإصرار على موقفه، فهي تكرهه وتخشى أن يصير أفضل من أبنائها، يا لها من خسارة فادحة إن حدثت، ولكن لا، ابن الباغية لن يتفوَّق على أولادها، تعرف جيدًا كيف تجعله يفشل، تخطط كي تقنع أباه بإخراجه من المدرسة، عليه أن يتعلَّم أعمال الفلاحة، فهو غبيٌّ ولن ينجح بعملٍ آخر، وربما تعثر على شيءٍ آخر يُنزِله إلى الدرك الأسفل من الانحطاط...

سمع صوت أقدام، ورغم حزنه ابتهج قلبه، ظنَّها جميلة، رفع رأسه، لم تكن جميلة، بل جمال، اسمان متشابهان لشخصين متناقضين. كان في الماضي كلما رآه هرب منه، لكنه في هذه المرة لم يفعل، شعر أنه مُقيَّد وأن لا طاقة في جسده، إنه خاوٍ ويائس ومستسلم. ابتسم جمال بخبث لما رآه...

- كيف حالك يا أحمد؟

لم يجب ولكنه لم يهرب كعادته، ربما تكون الفرصة مواتية، خمَّن جمال. إقترب منه، لم يبق بينهما مسافة كبيرة، خشيَ الاقتراب أكثر، ربما إنه يراوغه، فهو سريعٌ جدًّا، لعلَّه يريد أن يسخر منه ليس إلا، سيدعه يقترب ثم يولِّي هاربًا. حار جمال فيما يفعل. أشعل سيجارةً...

- هل تريد واحدة؟

ظل صامتًا، كان في داخله شيء يدفعه للقبول، سمع كثيرًا أن السجائر تقضي على الحزن، حرَّك جمال قدميه ببطء، مدَّ يده بالسيجارة...

- يبدو أنك متعب، خذ، هذه ستُحسِّن مزاجك.

كانت يده ترتعش وهي تأخذ السيجارة من جمال، وضعها بين شفتيه، سحب منها نفسًا، أطلقه متبوعًا بسعال...

- ليس هكذا، اسحب الدخان إلى الداخل، لا تدعه يقف في حلقك.

شدَّ نفسًا طويلًا وغصبه على الدخول إلى أعماقه، كان يروم إطلاق الدخان للقبض على الحزن وإخراجه من داخله...

- هل جدتك هنا؟

هزَّ رأسه أن لا، خفق قلب جمال بشدَّة، لم يكن يتصوَّر يومًا أن يحظى بمثل هذه الفرصة، أدرك أنه في حالةٍ نفسيَّةٍ سيئة، جلس بقربه...

- من أغضبك؟ أخبرني، أقسم أنني سأنتقم لك منه.

- أبي.

لا يعلم كيف خرجت الكلمة من فمه، كان بحاجةٍ إلى أحدٍ يبوح له بما يشعر به، حتى لو كان هذا الأحد، جمال...

- أعانك الله يا أخي، ابتليتَ بأبٍ مجنون وأمٍّ ذات سمعة سيئة، لا أحد يعلم لماذا يحدث لك ذلك دون الناس جميعهم؟

انفجر باكيًا، وضع جمال يده فوق رأسه، وجذبه إليه برفق، انتشى لما لم يُبدِ معارضة، وضع رأسه في حضنه وراح يُمسِّد عليه...

- عليك أن تنتقم منه، هذا الأب الملعون.

قال جمال ذلك ويده تجوس في ظهره، بدا وكأنه لا يشعر بشيء... ثم أردف ولعابه يقطر من شدقيه:

- لا شيء أفضل من الانتقام ممَّن يؤذوننا.

همس بصوتٍ مرتجف خائف:

- كيف ذلك؟

- أنا سأفعل، ليس عليك سوى الاستماع لكلامي ولن تندم.

غاصت يد جمال عميقًا في جسده، كان كل همِّه في تلك اللحظة الانتقام من أبيه الذي سيغتال حلمه، كان وكأنه منوَّم، أغمض عينيه، وكأنه في عالمٍ آخر، وكأنه شخصٌ آخر وليس أحمد المعتاد، لقد فَقَدَ نفسه، كان غائبًا تمامًا، حتى أيقظته صرخة العم مصطفى، أفاق مذعورًا، التفت فتلاقت عيناه بعيني جميلة التي كانت تشهد فضيحته... وموته.

٩

تجمَّد كل شيءٍ حوله، نُزِعَت الحياة من الحياة، كان مثل قِرَبةٍ مليئةٍ بالهواء ثُقِبَت، تسرَّب الأكسجين من جسده، أحسَّ بالاختناق. طارد العم مصطفى جمال، أما جميلة فوقفت مشدوهة لا تلوي على شيء. هل تذهب إليه وتواسيه، أم تهرب منه لئلّا يدنِّسها؟ كانت أقرب إلى الطفولة منها إلى البلوغ، غلبتها براءتها، بكت ثم خاطبته بصوتٍ مخنوق:

- انهض، انهض.

ولكن كيف له أن ينهض بعد هذا؟ كان دائمًا قادرًا على النهوض مهما كانت قوة الصفعة التي توجِّهها إليه الحياة، كان دائمًا قادرًا على الجري والهرب من المآسي التي تلمُّ به، ولكن هذا لن يسمح له بالنهوض مجدَّدًا، ولأول مرة تمنى أن تخلِّيه جميلة وتذهب، لا، تمنى أن تختفي أو يختفي هو، أو تنسى ما حدث... كيف ستنسى؟ إن هذا سيعلق في ذاكرتها ما حيت...

- انهض، انهض.

لم تناده باسمه، وكأنه صار غريبًا عنها. لقد بات غريبًا ليس عنها فقط، بل عن نفسه. ترى كيف سلَّم نفسه لجمال؟ طالما راوده وطالما أفلح في صدِّه والخلاص منه، لماذا الآن؟ أحقًّا أنه أراد الانتقام من والده، أم تراه كره نفسه فقرر خسارتها للأبد؟ ليس سببًا واحدًا ما دفعه لذلك، ثمة جُملةً من الأسباب التي تكالبت عليه وهزمته، قتلته.

- انهض، انهض.

لماذا هو دونًا عن الآخرين؟ لماذا حدث له كلُّ ذلك؟ ما الذي دفع بوالديه للانفصال ورميه؟ لماذا حظي بأبٍ قاسٍ وأم فاجرة؟ لماذا كان موهوبًا في لعب الكرة؟ لولا تلك الموهبة لما كان شعر بالخسارة الفادحة، كان سيعيش مع جدته بسلامٍ حتى يكبر، لماذا، لماذا كان يحلم؟

غادرت جميلة بعد أن فقدت الأمل. لن ينهض، سيظلُّ طوال عمره مطأطأ الرأس، سيصير مطيَّةً للمآسي، صغيرها وكبيرها، لقد أحنى ظهره ولن ترحمه أبدًا، ستجده سهل الركوب، ستعتليه، ستقصم ظهره يومًا بعد يوم، سيوقن أن لا خلاص، لقد انتهى الأمر، وقع في مصيدتها وأحكمت عليه، ولن تُفلته مهما انتفض، هذا إن كان سينتفض...

ارتدى بنطاله وجرَّ جسده لائذًا بجذوع شجرة التين، حتى هي تخلَّت عنه ولم تحمه، تركته يقع فريسةً لذلك الذئب، لماذا لم تستره عنه؟ لو لم يجلس تحتها ما كان الذئب ليراه. اختبأ في جوفها، خُيِّلَ إليه أن جميع سكان القرية يرقبونه ويسخرون منه، هذه المرة لن ينجح أحد في ثنيهم عن ذلك، كانت الجدة تقول إنه فتى طيب وعليهم معاملته باحترام، والآن ما الذي ستقوله؟ وهل سيصدقها أحد مهما قالت؟

خشي أن يعود الذئب ليكمل عليه، حبا بين جذوع الأشجار المصطفَّة في طابور حتى وصل حلقةً للصخور أسفلها وادٍ شديد الانحدار، جلس خلف أكبرها، نظر لأسفل، قد يكون الموت هو الحلُّ الأنسب لإنهاء هذه القصة، لن يتكلم الناس عنه بعد موته إلا قليلًا، أجمل ما في الموت أنه يُمحي الميِّت من ذاكرة الناس، سينسونه مع مرور الوقت، سينسون كلَّ شيء عنه، حتى مهارته في كرة القدم.

دلَّى قدميه عن الحافَّة، أحنى ظهره، اعتراه الخوف، لا يريد أن يموت، لا يزال في نفسه أمل، برغم كلِّ هذا عاد الأمل ودغدغ قلبه، همس فيه أن لا مستحيل، لربما لن يدري أحد بما حدث، لعلَّ العم مصطفى لن يتحدث بالأمر، أما جميلة فمن المؤكد أنها ستكتم ما جرى ولن تبوح به مهما حدث، إنها صديقته الصدوقة ولن تخذله، نعم قد تجري الرياح بما تشتهي السفن، ولكن كيف سينجح في الخلاص من هذا الشعور الذي استوطنه.

لقد أصيب في مقتل، ستتعذب نفسه دائمًا، سيحضُره هذا المشهد كلما حاول أن يفرح، سيتكرَّر أمام عينيه كلما عنَّ له أن يرفع رأسه، سيكون بمثابة سقف قبره الذي سيرتطم به كلما أراد النهوض...

تقهقر للخلف، امتدَّت يد العتمة وحجبت بقايا الضوء، عليه أن يرجع إلى الغرفة، إن الذئاب تعشق الظلام، ستشمُّ رائحة دمه الطازج وتأتي لتقضي عليه، اهرب... اهرب قبل حضورها. وقف مثل شجرةٍ صغيرة أحنتها ريح عاصفة، مشى خطواتٍ بين الصخور، داهمه خوفٌ شديد، لقد عاد الذئب، إنه يسمع صوت

أنفاسه، لا بُدَّ أنه كان يراقبه، أمَرَ ساقيه أن تجريا مثلما كانتا تفعلان في السابق، لم تُطيعاه، ازدرد ريقه... ترقَّب مرعوبًا مخالب الذئب المسمومة.

رفع رأسه، هُيئ إليه أن صوتًا يشبه صوت فرقعة أوراق البلوط وهي تُلقَى في النار خرج من عنقه، تذكر فأخفض بصره إلى الأرض، انتهى، سيتحول إلى دمية يلهو بها جمال متى وكيف شاء، لم يكن يتصوَّر أن هذه اللعبة خطرة إلى هذا الحد، ظنَّها مجرَّد لعبة يستطيع الخروج منها متى أحب، غير أنه أدرك صعوبة أو استحالة ذلك...

- تعال يا أحمد.

لم يكن صوت الذئب، بل صوتًا لـِ... لربما يكون لذئبٍ آخر، وما أدراه، لعلَّ الذئاب اتَّفقت على تقسيمه فيما بينها، كلٌ ينهش من جسده قليلًا. كان مستسلمًا تمامًا، مشى جهة الصوت طمعًا في النجاة أو الموت، لا فرق، المهم أن يرتاح من هذا الإحساس الغاشم الذي استعمره.

جلس جوار العم سلطان، كانت تفوح من فيهِ كالعادة رائحة غريبة، أخرج زجاجةً خضراء، أزال غطاءها، ثم جرع منها كثيرًا. كان يعلم أن العم سلطان مدمن خمر، كلُّ سكان القرية يعرفون هذا، ولكنه لم يسمع مسبقًا بأنه ذئبٌ مثل جمال. كان خائفًا إن صحَّت تسمية ما يعتمل في صدره وما يلبس جلده خوفًا، لقد عرف الخوف من قبل، هذا الذي يحسُّه لا يشبه الخوف إطلاقًا. كان يرتعد، يختلس النظر إلى يد العم سلطان، تُرى هل سيمدُّها إلى جسده؟ هل سيرى يدًا أخرى تتحول إلى مخلب؟ كان العم سلطان صامتًا مثل الجبل المنتصب قبالتهم. وبعد قليل بدأت تندُّ عنه أصوات غريبة، وكأن أحدهم يقطِّع أمعاءه...

- الحياة ظالمة يا أحمد، إنها لا تتمرجل إلا على الضعفاء.

كرع مجدَّدًا من الزجاجة أكثر من المرة السابقة، وضع يده فوق جبينه، بدا وكأنه يبكي. تُرى هل رأى العم سلطان ما حدث له؟ هل سيستغل ذلك؟ ما الذي سيفعله؟ كانت الأسئلة تعبث برأسه المُثقل، رأسه الذي كلما حاول أن يرفعه عاد وانحنى رغمًا عنه، أبقاه منخفضًا، لقد هرم جسده، هرم ولن يستعيد شبابه...

- إنني أعرف تمامًا ما الذي تشعر به يا أحمد.

عن أي شعورٍ يتحدث؟ وكيف له أن يعرفه؟ بات من شبه المؤكد أن العم سلطان شَهِدَ الواقعة...

- لن ينجيك إلا الهرب، سيسلقك أبناء الزنا بألسنتهم ولن يدعوك وشأنك، ستصير تسليتهم، وكلما نسيتَ سيُذكرونك، لا حلَّ إلا الهرب.

الهرب! يبدو أن العم سلطان سكران ولا يعي ما يقول. فتح زجاجةً أخرى، بعد أن تحشرج صوته وتساقطت بعض الدمعات من عينيه، كرع نصفها ثم تجشَّأ...

- أسوأ أنواع الخمر، هي التي تشربها وأنت حزين.

تهدَّج صوته، ثم بدأ ينشج. ودَّ لو يستطيع التخفيف عنه، ولكن كيف؟ إنه أكثر إنسانٍ في الدنيا يحتاج ذلك. تمنى لو يبوح للعم سلطان، أن يخبره بما حدث معه مذ وُلِدَ وحتى خلع بنطاله، كان يتسوَّل عذرًا يسوِّغ فعلته. وبينما هو شارد شعر بيد العم سلطان تلمس يده فانتفض...

ضرب العم سلطان الزجاجة بالصخرة التي يجلس فوقها، أمسك بشظية وجرح يده، ثم صرخ بصوتٍ حزين:

- آه يا أبناء الزانيات.

كان صدره يعلو ويهبط بسرعة، وسوس له صوت بأن يهرب، لم يستطع...

- لا تخفْ، لا تخفْ مني يا أحمد، لم أصِرْ وحشًا بعد، ربما أصير كذلك في المستقبل، لكنني إلى الآن أحافظ على ما بقي فيَّ من إنسان.

صارت الدموع تنسكب من عيني العم سلطان بغزارة...

- بعض الندوب لا تُمحَى أبدًا، وخصوصًا الندوب التي تصيب النفس.

قال العم سلطان ذلك بصوتٍ مخنوق. كان منكمشًا على نفسه، تضاعف حزنه، لقد افتُضِحَ أمره، كلمات العم سلطان تشي بذلك، وما دام العم سلطان عرف فإن القرية كلها باتت تعرف، كلها. كان في داخله صوت ينوح، يرثي أحمد الذي كان قبل قليل طفلًا، طفلًا كل همِّه لعب كرة القدم، لماذا حرمته الحياة هذه الأمنية البسيطة؟ لم يكن يحلم بأكثر من كرة جلد يركلها... وها هي الحياة تركله في مقتل...

كان الظلام قد غطى كل شيء، ضوء القمر الشحيح ليس بكافٍ لإنارة مساحةٍ صغيرة، مساحةٍ بحجم قلب، قلب كقلب أحمد المعتم الحزين، المغتال.

هل تنجح هذه الزجاجة الخضراء في تخليصه، تحريره من هذا القيد المؤلم الذي دكَّ في ربلتيه وكفَّيه وثبَّته في قاع الهزيمة؟ هل تفلح الزجاجة في أن تُنسيه ما حدث؟ إنه يختنق في بئر الفضيحة، إنه يزداد عمقًا مع كل شرود يصوِّر له ما سيحدث لاحقًا؛ سيسمونه بوسمٍ لا فكاك منه، سيُنسى اسمه ويستَبدَل بكنيةٍ جديدة. إن العم سلطان مُحقٌّ، لا حلَّ أمامه سوى الهرب، لن يفتقده أحد إلا الجدة، ولكنها ستسامحه حينما تدرك أنه اختار الحلَّ الأفضل له ولها، سيحميها من كلام الناس الذين سيلمزونها بسوء التربية، ولكن إلى أين؟ أين المفرُّ؟ أيلجأ إلى مغارةٍ من مغارات القرية؟ هل سترحمه الوحوش التي تسكنها، أم ستنهشه بلا رحمه مثلما فعل به بنو البشر؟

- لقد تأخر الوقت يا صديقي، ستقلق جدتك عليك، هيا اذهب إليها.

كيف سيذهب؟ بماذا سيخبرها؟ سيقتلها حين يصلها النبأ. فضَّل البقاء مع العم سلطان، إنه يُخفف عنه مُصابَه بكلماته. ربما يجد له مخرجًا آخر غير الهرب، مخرجًا ينجيه وينسيه. نظر إليه العم سلطان، هزَّ رأسه بأسى، ثم سأله:

- كم عمرك يا أحمد؟

تحامل على وجعه وأجاب بعد أن تجرَّع ريقه مرات عدَّة:

- إحدى عشرة سنة.

نظر العم سلطان إلى الأفق ثم همس:

- لقد كنتُ أصغر منك حينذاك.

عاد إلى الغرفة، كان في أثناء سيره إليها يرى أشباحًا تدخل جسده، لأول مرة يخاف الأشجار، وينتابه شعور بالكره نحو البستان، لم تعد الصخور مدافعين يحاولون منعه تسجيل الأهداف. كان كلُّ شيء يعود إلى طبيعته، جمادًا، لا حياة فيه.

لم يتخيَّل أن هذه الأشباح هي شخصياته الجديدة التي ستظهر لاحقًا، الأناس الكُثُر الذين سيقطنونه ويقضُّون مضجعه. كان يمشي وهو يظن أن حشدًا غفيرًا خلفه ينظر إلى آثار خطيئته، يشيرون إلى موضع المخلب ويقهقهون، كان عاجزًا عن الالتفات إليهم، لا يريد لأحد أن يرى وجهه، ستصفعه نظراتهم وتجرحه حدَّة ضحكاتهم، سيبقى حاني الرأس لينجو ببقيَّة باقية من كرامته...

كان يستتر عن الأعين، يسترق النظر إلى الطرقات، ولمَّا يتأكد من خلوِّها، يزحف بجوار السلاسل الحجريَّة، وحين يسمع ركزًا، يقفز خلفها مختبئًا، يكمن حتى يتأكد من ذهاب صاحب الصوت، ثم يخرج ويزحف مجدَّدًا.

كانت أعمدة النور الثلاثة في الطريق إلى الغرفة، لا تعمل في السابق، وخصوصًا في الأوقات التي يزمع هو وأصدقاؤه فيها على لعب الكرة ليلًا، أما الآن فتبدو وكأنها ازدادت قوةً، وكأنها استحالت شموسًا تروم إضاءة القرية كلها لتجتمع وتراه. لقد بات النور مؤلمًا لقلبه وطمأنينته، تمنى لو أن ظلامًا سرمديًّا يغلِّف الأرض من أقصاها إلى أقصاها.

آلمته ركبتاه بفعل الزحف، هو الذي كان دائمًا يركض ولا يشعر بألم، كانت ساقاه فولاذيَّتين تسندانه فلا يعتريه تعب، كان أصدقاؤه يغيرون منه، يتمنون لو تملك سيقانهم قوة ساقيه، غير أنهما الآن انهارتا وأوجعتاه.

سلك الطريق المظلم، رأى جرذًا يركض مسرعًا، خرج من إحدى فتحات الحفرة الامتصاصيَّة ودخل في ثقبٍ أسفل بيت العم مصطفى. فكَّر، لو يستحيل جرذًا، سيكون ذلك أفضل بالتأكيد، سيصير بمقدوره الاختباء عندما يتهدَّده الخطر، سيهرب بسرعةٍ فلا يراه أحد، سيدخل من الثقب المحفور أسفل بيت العم مصطفى ويتلصَّص على جميلة. ترى ما هي أخبارها؟ ما الذي تفكر به الآن؟ هل سيراها مرةً أخرى؟ بأي وجهٍ ستقابله؟

جاهد كي يرفع رأسه وينظر إلى النافذة التي كان يراها منها، وكأنه يرفع حِملًا ثقيلًا، سمع طقطقة عنقه، حتى بيت العم مصطفى كان معتمًا، ولا يوجد أي ضوء يخرج من غرفة جميلة. هل استطاعت النوم بعد الذي رأته؟ ولكن لماذا تهتم؟ إنهما مجرَّد طفلين، سيفترقان وتنساه. هي الوحيدة التي تمنى ألَّا تفعل، وهي أول من ستفعل.

مشى فوق الصخور الناتئة أمام الغرفة، كان فيما مضى يقفز فوقها بسهولة، أما الآن فخُيِّلَ إليه أنها جبالٌ شاهقة، أتعبه تسلُّقها، ولولا خوفه من مفاجأة أحدهم له لكان جلس ليستريح قليلًا. لم تعد ركبتاه وحدهما تؤلمانه؛ بل صار يشعر بخدرٍ غريب يسري في كامل قدميه، ربما يكون الزلزال الذي ما انفك يضرب قلبه قد وصلهما.

أخيرًا بلغ باب الغرفة، وضع أذنه على بابها الخشبيّ، لم يسمع صوت تسبيح الجدة أو شخيرها، ربما خرجت لتبحث عنه، أو ربما تكون قرَّرت الهرب من الفضيحة. إلى من ستلجأ؟ إنها تكره أن تكون ثقيلة الظل، لن تذهب إلى ابنها، كما أنها لن تقبل المكوث في بيت أحد أقاربها، هذه الغرفة هي ملجأها الوحيد، ولكن أين هي؟

يمَّم شطر الحمَّام، لم تكن هناك، أزاح لوح الزينكو ودخل. كان يشعر بألمٍ في إسته، شطَّفه بالماء، ثم وضع رأسه في البرميل، كاد يختنق، أخرجه وشهق طويلًا. كان يشم رائحةً غريبةً تخرج من جسده، خشي أن تكون رائحة الخطيئة قد بدأت تفوح، حتى الرائحة تبغي فضحه. خلع ثيابه، ثم نزل بكامل جسده في البرميل. كانت المياه باردة، وكأنه يريد معاقبة هذا الجسد الآثم، تركه يرتعد في عتمة الحمَّام ولم يستجب لرجائه بالخروج.

تناهى إلى سمعه صوت أقدام، وضع يديه على حافة البرميل وخرج ببطء، أطلَّ برأسه من جانب لوح الزينكو، أجال بصره على الأرجاء، رأى أحدهم يقفز فوق الأسطح، إنه سعيد، جارهم العاشق، سيقف فوق سطح بيت العم صبحي، الذي يخيِّم مع عائلته في بستانه، ليختلس النظر إلى بيت محاسن، خطيبته.

ارتدى ثيابه فوق جسده المبلول، اطمأن أن لا أحد في الخارج، دلف إلى الغرفة، فتح بابها الخشبيِّ، لفحته، على غير المعتاد، رائحة عفونة، كان دائمًا يشمُّ روائح زيت الزيتون والمكدوس وعطر جسد

الجدة. آين ذهبت؟

دخل الغرفة، انتقى زاويةً حالكة الظلام، تكوَّر على نفسه خوفًا وبردًا، ماذا لو أنه لم يذهب إلى بيت أبيه؟ ماذا لو أن أباه لم يلكمه؟ لماذا ذهب إلى البستان؟ لو أن قدمه كُسِرَتِ ولم يفعل لكان ذلك خيرًا له، تناهشته الأفكار والأسئلة. انفتق في داخله جرحٌ عميق وُلِدَ منه إنسانٌ مشوَّه، مسخ.

أخرجه صوت عكاز جدته من لُجَّة أفكاره المريضة المرعبة، دفعت الباب ودخلت، تصاعد صوت أنفاسه، اقتربت من الفانوس وأشعلته...

- هل أكلت؟

لم يكن يتوقع هذا السؤال، إذن فالجدة لم تعرف، ظل صامتًا...

- هل أنت حزين لأنه ضربك؟ لقد فعل ذلك من أجل مصلحتك.

تمنى لو كان بمقدوره تصديق هذا الكلام...

- حسنًا، لا تحزن، لقد وافق على مقابلة الأستاذ، ووافق على التحاقك بالنادي.

١١

كان جالسًا بجانب الأستاذ هيثم في الحافلة، سيذهبان إلى المدينة، سيخضع لفحوصات النادي، وهو أحد الأندية الأربعة الكبيرة في البلاد، قال له الأستاذ هيثم إن هذه مجرَّد انطلاقة، حدَّثه عن لاعب عربيٍّ اسمه رابح ماجر، فاز بواحد من أكبر الألقاب، ليس على مستوى الوطن العربي؛ بل العالم كله، بطولةً الأندية الأوروبيَّة، وكان رابح قد سجَّل هدفًا أسطوريًّا لفريقه بورتو ضد بايرن ميونخ، كانت بدايات رابح في أنديةٍ محليَّة، ثم حلَّق نحو أوروبا. شجَّعه، أخبره أنه يملك قدرات ستؤهله - بعد الصقل - إلى اللعب في مصاف الأندية العظيمة.

كان منكمشًا، يشعر بالخوف من الأستاذ هيثم، يخشى أن هذا ليس إلا فخًّا يحاول استدراجه به إلى الهاوية من جديد...

- مارادونا، هل أنت بخير؟

أومأ برأسه بصعوبة بالغة أن أجل...

- هل أنت خائف من الاختبارات؟ لا عليك، إنها اختبارات بسيطة، ستجتازها بسهولة.

كان يتحاشى النظر مباشرة في عيني الأستاذ هيثم، هُيِّئَ إليه أن باطنه صار معرًّى تمامًا وأن كشفه لا يتطلَّب أكثر من اختراق عينيه الهشَّتين، هرب بهما بعيدًا فور سكوت الأستاذ هيثم. اعتقد أن القلق الذي اعتراه حينما سمع صراخ العم مصطفى لما افتُضِحَ أمره، سيزول، لكنه صار يتضخم أكثر وأكثر، وكأنه بالونٌ زُرِعَ في قلبه، ينفخ فيه أحدهم ليكبر أكثر وأكثر، تُرى إذا انفجر، ما الذي سيحدث؟ ربما يتمزَّق قلبه.

خُيِّلَ إليه أن سكان القرية قد عرفوا الخبر، فقد نظر إليه بعضهم بريبة صبيحة هذا اليوم، ولكن لما سأله العم رضا ثم العم عدنان ثم الجدة صيتة عن سبب سيره ببطءٍ وعدم ركضه كالمعتاد، أدرك أنهم يجهلون وأن الفضيحة ما زالت في نطاق ضيِّق. كانت تعتريه رعدة ترجُّ جسده كلما تصوَّر انتشار الخبر. عنَّ له النزول من الحافلة والهرب، هذه مدينة كبيرة ولا أحد يعرفه فيها، سيتخلص من القلق والخوف، سيعود كما كان، سيركض في الطرقات، سيلعب كرة القدم، وسيحلم باللعب في نادٍ كبير، سيعود أحمد الذي كانه قبل... قبل يوم.

وقفت الحافلة في المحطة، همَّ بالهرب، ولكنه كان مقيَّدًا بخوفٍ شديد أقعده...

- النادي قريب، بضع دقائق ونصل.

كان في داخله شكٌّ وليد، نما قريبًا في نفسه، راح يوسوس له بأنه سيفشل، لن ينجح في اجتياز الاختبارات، سيسخر منه الفاحصون والأستاذ هيثم، سيحدِّقون إلى الفجوة في دُبُره حين يرتدي الطقم الرياضيَّ القصير، وسيغرقون بالضحك، لماذا أطاع الأستاذ هيثم وأتى؟

- أترى هذا هو الملعب الخاص بالنادي؟

ارتعدت فرائصه حين وقعت عيناه على المساحة الشاسعة للملعب، ولما بصر النجيل الأخضر، ارتعش قلبه. عاد الحلم وخفق شاحذًا أملًا في طور الاحتضار، قرأ اسم الملعب على لافتة كبيرة «ملعب الحاكم المعظَّم». طالما حلم بهذه اللحظة، ربما تكون لديه الفرصة للتعويض عمَّا ألمَّ به، لعلَّ الحياة تبتسم في وجهه وتأخذه بحضنها، أم تراها ستلفظه كعادتها؟

طاف به الأستاذ هيثم في أرجاء المكان...

- هذا الملعب للمباريات الرسميَّة فقط، أما التمرين فيجري في مكانٍ آخر.

كان مشغول البال، تتنازعه الرغبة بين تحقيق الحلم وبين هذا الإحساس الجديد الذي يؤكد له بأنه سيفشل فشلًا ذريعًا

- تصوَّر تلك المدرَّجات مليئة بالجماهير، وكلها تهتف باسمك، مارادونا.

تخيَّل الجماهير تملأ المدرجات، سمع صراخهم، انقسموا نصفين: الأول يشجعه ويهتف باسمه، والثاني يسخر منه.

- بضع سنوات وتنضمَّ للمنتخب الوطني، ولا بُدَّ أن تأتي فرصتك، يُمنَح كلُّ إنسان فرصته في الحياة، وللأسف، كثيرون - مثلي - لا يستغلونها.

يمَّما شطر ملعبٍ صغير، كان فيه عدد من الشباب متفاوتي الأعمار يتدرَّبون. هرع أحد المدربين للقاء الأستاذ هيثم فور رؤيته، تعانقا طويلًا...

- لقد اشتقنا إليك كثيرًا يا رجل، أرأيتَ ما فعلته بك السياسة؟ نقلوك إلى آخر الدنيا.

- لا بأس، إنها ضريبة الكرامة.

التفت المدرِّب إلى أحمد، ثم خاطب الأستاذ هيثم:

- هذا هو؟

- أقدِّم لك مارادونا.

راز المدرِّب أحمد بعينين خبيرتين، ثم قال:

- لولا أنني أعرف الأستاذ هيثم جيدًا، وأعلم أنه لا يُجامل، لقلت إنه يبالغ كثيرًا.

نظر الأستاذ هيثم إلى أحمد، غمزه بعينه...

- أرِهم مهارتك، الملعب لك.

دخلوا الملعب الصغير المسوَّر بشيكٍ حديديٍّ، أرضيته مغطَّاةٌ بـ (الترتان)، مستوية. كان وأصدقاؤه يلعبون في ملاعب ترابيَّة مليئة بالحفر والنتوءات، إنها فرصةٌ ثمينة، هنا ستظهر مهاراته وسرعته الفائقة على حقيقتها... ولكن...

طلب منه الأستاذ هيثم تجهيز نفسه، أشار إلى غرفةٍ صغيرة، أخبره أن بإمكانه تبديل ملابسه فيها، حمل حقيبته ودخل الغرفة. قضمت حشرةٌ مسمومة فرحته، سرى سمُّها في جسده كلِّه، كانت فرحته مسمومة... توشك أن تموت.

بدَّل ثيابه بطريقةٍ آليَّة، نظر إلى قدميه، كانتا ترجفان. تمنى أن يذوب، أن يتلاشى في هذه اللحظة تمامًا، هذه اللحظة التي صار فيها حلمه بين قدميه. جفل لما سمع الأستاذ هيثم يناديه بلقبه...

- هيا يا مارادونا.

خرج ليرى العيون تحدِّق فيه من كل حدبٍ وصوب، نظر إلى الأستاذ هيثم، كان يرجوه أن يحميه مما سيحلُّ به، أن يأخذه ويُعيده إلى حيث كان. ظنَّ الأستاذ هيثم أنها أعراض القلق الطبيعيِّ ليس إلَّا، أومأ برأسه مُشجِّعًا. تجرَّع ريقه، كان جافًّا وكأن سكينًا حادةً زُرِعَت في نهايته. وضع حقيبته، ودخل أرض الملعب.

١٢

لا أعرف، ولكن يبدو أنك لست في حالٍ جيدة اليوم، لا بأس، لقد منحني صديقي أسامة فرصةً أخرى، عليك أن تأخذ الأمر على مَحمَل الجد في المرة القادمة، سأقف إلى جانبك وأدعمك حتى يجيء الموعد، إنني أوقن أن أمرًا ما كان يشغلك في أثناء الفحوصات، لم تكن أنت، لو قدَّمت عُشر مهارتك لكنت اجتزت الفحوصات، لكن... لا بأس، لا تزال أمامك فرصةً أخرى.

انكسر. داهمه شعور بأنه لن يعود قادرًا على ممارسة كرة القدم مجدَّدًا، أين ذهبت مهارته؟ لقد كان قادرًا على الاحتفاظ بالكرة فوق قدميه ورأسه ساعةً كاملة، وكان يسدِّد الكرة بقوة من مسافات بعيدة ونادرًا ما يخطئ المرمى، كان يستقبل الكرة ويروِّضها بقدميه وصدره ورأسه بسهولة، كان يمرق كالسهم بين المدافعين ولا يستطيعون اللحاق به. لم يكن هو، هذا ما هو متأكد منه. الإنسان الجديد الذي وُلِدَ من جرحه خائف ولا يملك أي مهارة، لقد هزَّته النظرات التي كانت تراقبه بعناية، كبَّلته وأبطأت سرعته، كانت تتحكم بحركته، حين يريد أن يسدد الكرة، تمرُّ أسفل قدمه فيضحكون، يتهامسون فيما بينهم، أهذا هو مارادونا؟ كانت الأصوات تتشكَّل على هيئة قنابل، تنفجر بجانب أذنه فترجُّ جسده.

كان عاجزًا بشكل مريع، وكان يستقبل الهمسات والضحكات باستسلام تام، هُيِّئ إليه أنه يستحق ما يحدث له، إنه ليس سوى إنسانٍ عاديٍّ، لقد عبث به خياله وصوَّر له أنه مميَّز، وكم كان أحمقَ حينما صدقه.

ظل صدى صوت الضحك والهمس يتردَّد في أذنيه، تمنى لو يرحمه قليلًا، كان يهمُّ بالبوح للأستاذ هيثم عن سبب فشله، وكان يقلع فورًا، يريد إبقاء صورته الجميلة في ذهنه، لن يخسر احترام الأستاذ هيثم، عليه أن يكتم ألمه، وعليه أن يعتاد ذلك.

هبط من الحافلة، رآه بعض أصدقائه الذين عرفوا بذهابه للتسجيل في النادي، هرعوا إليه، أمطروه بالأسئلة. كان يلوذ بصمتٍ مُمِضٍّ، لم يجب، خالوه بدأ يتكبَّر عليهم، ولكنهم لم يدعوه وشأنه، ظلوا يُلحُّون عليه، استفسروا عن اسم النادي وموعد التحاقه به، وطبيعة التدريبات، وإن كان قابل اللاعبين الذين يرونهم على التلفاز، وعن رأيهم فيه، لا بُدَّ أنهم أعجبوا به كثيرًا. كانوا يحسدونه على ذلك، إنهم يدركون جيدًا أنه ماهر ولن يسمح بضياع هذه الفرصة.

هل يخبرهم؟ هل يخبرهم بأنهم مخطئون، لم ينجح في اجتياز اختبارات سهلة، بل على العكس تمامًا، لقد صار مهزلة ضحكوا عليها كثيرًا؟ لا، لم يبهرهم، لقد رجع يجرجر أذيال الخيبة ليس إلا.

واصلوا المشي معه وهو غارق بالصمت. انتابه فجأة إحساس غريب، وكأن أحدهم رشقه بماء بارد، التفت رغمًا عنه، فرأى الذئب يبتسم، كان جمال جالسًا أمام دكان العم موسى، أدار وجهه بسرعة حين التقت أعينهما، ثم راح يتحدث، كان يشتت انتباه أصدقائه كي لا ينظروا إلى جمال، خُيِّل إليه أنه سيُفتَضح أمره إن شاهدوا نظرات جمال وبسمته.

كلَّمهم عن تفوّقه ونجاحه في الفحوصات، وكيف صفَّق له الحاضرون، حتى إن فايز جمعة كان حاضرًا وأعجب به جدًّا، وجاء في نهاية الفحوصات، سلَّم عليه ودعاه للتسجيل في ناديه، ولكن المسئولين عن النادي الذي قدَّم فيه الفحوصات رفضوا ذلك، وأصرُّوا على التحاقه بناديهم.

اختلس النظر إلى الوراء، تنفس الصعداء لمَّا تأكد من احتجابهم عن عيني الذئب، كان يخشى أن يقترب منهم ويحرجه أمام أصدقائه، إنه يملك سيرةً سيِّئة ولن يردعه شيء.

غادر أصدقاؤه حين اقترب من الغرفة، كانوا سعداء، لقد روى لهم حكايات يحبون سماعها، وهذا ما أسعدهم؛ بات لديهم صديق سينقل إليهم أخبار اللاعبين. دخل الغرفة، كانت الجدة تجلس فوق فرشتها والمسبحة ساكنة في يدها، كانت شاردة، أعادها صوت صرير الباب إلى الغرفة، نظرت إليه، وخلاف عادتها، لم تبتسم.

١٣

باتت الكوابيس لا تفارقه، توقظه عدَّة مرات في الليل، يحدِّق في السقف الذي يلوح وكأنه شاشة تلفاز كبيرة تستمر في عرض مشهدٍ وحيد، كان يرى نظرة الغضب في عيني العم مصطفى ونظرات الشفقة والكره والاشمئزاز في عيني جميلة.

كان يسمع صوتًا رفيعًا، وكأنه صوت طفلٍ صغير يئنُّ وجعًا، كان الصوت يندُّ من صدر الجدة التي صارت كثيرة السهو والدموع في الآونة الأخيرة. كانت تتنهد بحُرقة، تسترق النظر إليه وتحاول كتم السؤال الذي يلحُّ عليها. ساوره الشك بأن الجدة قد علمت بما حدث؛ لم تعد تحتضنه كما السابق، وكلما اقترب ليضع رأسه فوق ساقها هبَّت واقفة متظاهرة بحاجتها في الذهاب إلى الحمَّام أو الصلاة في أوقاتٍ لم تكن تصلِّي فيها، لم تعد تروي له قصص الشاطر حسن وعلي بابا والطائر الأخضر، هجرت مجلس النسوة أمام بيت أم سعيد، أضحى الصمت رفيقها الدائم، لا يخرج صوتها إلا لمامًا وعلى غفلة منها.

آخر ما يتمناه هو تغيُّر معاملة الجدة له، هي الوحيدة التي أبت التخلِّي عنه، وقفت في وجه أبيه ومنعته من طرده إلى الشارع، قالت له إن كان قلبه حجرًا فقلبها ليس كذلك، إنها تعرف جيدًا أنه حفيدها وليس ابن رجلٍ آخر كما أشاعوا في القرية، قلبها لم يكذب عليها ولن يفعل، هو حفيدها شاء من شاء وأبى من أبى. رفضت أن تكون مثل أمه قليلة الأصل، التي خلَّته وعادت إلى قريتها، تزوجت رجلًا جديدًا ونسيت ابنها، يا لها من أم. كانت تتساءل كيف يمكن لأم احتمال بُعدِ ابنها عنها، أي قلبٍ هذا - إن كانت تملكه أصلًا - بين جنبيها؟ كيف لا يصرخ في وجهها كي تعود وتزوره، هل تستطيع الأم أن تسنى ابنها؟ هذا غير معقولٍ أبدًا.

كانت تُفضي للجارات بأن الزمن الذي نحياه هو آخر الزمان، لقد تغيَّرت الدنيا وتبدَّل البشر، تحوَّلوا إلى وحوشٍ قاسية القلوب، تسرُّ إليهن بأن أم أحمد لم تزره منذ سبع سنوات، كنَّ يُجبنها بأن المرأة التي تخون بيتها مستعدَّة لارتكاب أكبر الفظائع والفواحش، دون أن يرفَّ لها جفن.

طالما حذَّرت ابنها من الارتباط بهذه المرأة، حدَّثها قلبها أنها ليست قادرة على إعمار بيت، لم يسمع لها كعادته، لقد أفسدته بدلالها، إنه وحيدها الذي جاء بعد طول صبر، وحيدها الذي مات أبوه وهو في المهد، كانت له الأم والأب، ولم يكن قلبها يطيعها في رفض طلباته مهما كانت، حتى لما قرَّر تطليق زوجته الأولى والزواج من امرأةٍ أخرى أسوأ منها لم تعارض، فلحى التي أبعدت وحيدها عنها.

كفلته ورعته، كانت تتحامل على آلامها وترافقه إلى البستان، تعينه على عزق الأعشاب الضارة، وسقاية الأشجار وقطف الثمار، تسعى لتأمين مستقبله، تحرم نفسها من أشياء كثيرة كي توفِّر له حياةً كريمة بعد رحيلها، تدرك جيدًا أن لا أحد سيُعنَى بحفيدها بعدها، لن تدعه يتشرَّد في الطرقات أو يتحوَّل إلى لصٍّ يسرق ليؤمِّن قوته، لقد ادَّخرت له مبلغًا سيكفيه حتى يكبر، وبعدها سيتكفَّل بنفسه، وسيكون ذنبه على جنبه.

كانت الشمس قد طلعت، لم توقظه الجدة لصلاة الفجر، ترى هل كان تعبًا لدرجة أنه لم يصحُ على وقع حركتها وهي تتوضأ وتصلِّي؟ أم تراها هي الأخرى غلبها النوم؟ كان من المفترض أن يذهبوا في الأمس لقطف الثمار، لم يفعلوا، نسيَ ولم تُذكِّره. لقد تبدَّلت كثيرًا في فترةٍ قصيرة، كسرها الحزن. تظاهر بأن الأمور على ما يرام، غير أنها ليست كذلك ولن تكون.

كان فيما سبق فور استيقاظه من الغفوة التي تعقب صلاة الفجر، يركض إلى البستان أو إلى الملعب، أما الآن فقد صار يمكث طويلًا في فراشه، يتصنَّع النوم وتتجنَّب الجدة إزعاجه، تدعه نائمًا حتى ينهض وحده. اكتسب عادةً جديدة؛ لا يقوم من الفراش إلا بعد أن تغادر الجدة الغرفة، تجنُّبًا لنظراتها الحزينة التي تمطره بها، كانت تخاله لا يراها وهي تحملق فيه صامتة، وكم كانت مخطئة، لقد كان يشعر بنظراتها وكأنها سوط يجلد ظهره بقسوة.

صارت الجدة تخرج من الغرفة لتعطيه الفرصة ليخلو بنفسه كي يتشجَّع وينهض، ولكنها لم تفعل ذلك في هذا الصباح. تململ في فراشه، اختلس النظر إليها، كانت متمدّدةً فوق سجادة صلاتها، يبدو أنها غفت وهي تصلِّي أو تسبِّح. فرقع أصابعه، إن نومها خفيف، توقظها أقل نأمة، كانت مستغرقة في النوم بصورةٍ جديدةٍ عجيبة، لم تصحُ.

لسع الخوف قلبه، نهض بهدوء، اقترب منها، كانت وكأنها تحلم، وجهها وجسدها مبسوطان، خطرت له صورة شجرة الزيتون الكبيرة في أيام القطاف، كم يشبهان بعضهما بعضًا. فَطِنَ إلى أن الجدة لا تُشخِّر، رنا إلى فمها وأنفها، كانا ساكنين تمامًا، اعتراه خوفٌ شديد، دنا منها، جثا بقربها، وضع أذنه فوق جانبها الأيسر، كان قلبها صامتًا أيضًا، لقد غلَّف الصمت جسدها من الداخل والخارج...

- جدتي.

همس في أذنها فلم تجب...

- جدتي... جدتي.

رفع صوته دون جدوى...

- جدتي أرجوكِ لا...

صرخ. لم يكمل جملته، لا يزال في نفسه أمل، إنها نائمة فقط، وستصحو بعد قليل، ستأخذه في حضنها، ستربِّت على رأسه، ستُفضي إليه بأنها عرفت بما وقع له، ولن يغيِّر ذلك من حبها له، إنها تحبه كيفما كان، ستسامحه وتلتمس له العذر، ستأخذه وتهرب به من هذه القرية الظالم أهلها، لن تفعلها وتذهب وحدها، لقد وقفت بجانبه طويلًا ولن تتخلى عنه لمجرَّد خطيئة اقترفها، إنها تحبه، والحب مغفرة، لذا ستغفر له...

- جدتي إنني آسف، والله لا أعرف كيف فعلت ذلك، لا أدري كيف استسلمت، إنكِ تعرفينني جيدًا، وتعلمين أنني لستُ خبيثًا، لقد زللت ولن أكرر ذلك، أقسم لكِ، أقسم.

لم يشفع له دمعه أو عذره أو قسمه.

١٤

استدعى جارهم أبي سعيد بعد أن أصابه القنوط، فشلت جميع محاولاته في إيقاظ الجدة، كان ليهرع إلى بيت العم مصطفى في ظروف أخرى، كان سيصرخ بأعلى صوته مناديًا كي تسمعه جميلة وتأتي لتواسيه، لكن عقب ما حدث، أصبح ذلك مستحيلًا...

هزَّ أبو سعيد رأسه بأسى، حوقل واسترجع...

- رحمها الله، عاشت وحيدة وماتت وحيدة، أعانك الله يا ولدي، من سيرعاك بعدها!

انسكبت دموعه غزيرة. كانت كلمات العم أبي سعيد مثل صخورٍ كبيرة سقطت في سدٍّ ممتلئ ففاض. التصق بالجدة، أمسك بقدميها لئَلا يأخذونها بعيدًا. لا بُدَّ أنها ماتت مقهورة، لقد قهرها بفعلته الشنيعة، ماتت وهي غاضبة منه. راح يُقبِّل قدميها، لم تسامحه وهي على قيد الحياة، فلربما تسامحه وهي ميتة...

جاءت الجارات، طردنه إلى الخارج، رفض، ظل ملتصقًا بها، دفعنه فلم يقوين على نهره. كان ينتفض مثل ديكٍ مذبوح. نادينَ على الرجال كي يأخذوه، لن يقمن بتعريتها أمامه حتى لو كان حفيدها. هدأت ثائرته حين رأى العم مصطفى يدلف من الباب، لم يحدِّثه، أمسك بيده وهو يشيح بعينيه عنه، تحوَّل إلى كلبٍ أليف، ألقى نظرةً على جدته، خُيِّلَ إليه أن شفتيها تتحركان، وكأنهما تقولان: إنني أسامحك.

استقبله رجال القرية بحرقة، راحوا يهوّنون عليه ويطالبونه بالكفِّ عن البكاء، إنه رجل والرجال لا يبكون، عليه أن يقتدي بأبيه الجالس بوقار، كان مثل تمثال لا تُبدي ملامحه أي تأثر أو حسرة، كان وجهه أقل الوجوه حزنًا.

جلس بعيدًا عن أبيه الذي تظاهر بأنه لم يره، تكوَّر على نفسه، اجتاحته لا مبالاة شديدة، فليعرف كل سكان القرية بفعلته، فليتكلموا وليسخروا، لن يهتم، لقد خسر كل شيء، كل شيء حتى الجدة.

ركض إلى الغرفة بعد أن خرجت النسوة، كانت الجدة ملفوفة بقماشٍ أبيض، وكأنها عروس جميلة، وكأنها صغرت، كان وجهها صافيًا، أقعى بجانب رأسها، انحنى وقبَّلها فوق جبينها كما اعتاد أن يفعل، تردَّد صوتها في أذنيه «الله يرضى عليك ويكبرك». زجره أبوه:

- ستلوِّث وجهها بدموعك.

ازدرد ريقه ولاذ بالصمت، أسجوها في النعش الخشبي، وحملوها إلى المسجد كي يصلُّوا عليها، وضع يده تحت النعش وساهم في رفعها. جذبته يدٌ بعيدًا، كان الأستاذ هيثم برفقة مجموعة من أصدقاء أحمد، تحلَّقوا حوله، وساروا وسط دويِّ الاسترجاع والحوقلة والتكبير...

أكملوا سُنن الدفن، ثم وقف أقرباؤها خارج المقبرة لأخذ عزائها، لم يقف معهم، ظل بجانب القبر، كان يمسِّد فوق ترابه ووجه الجدة يتراءى له باسمًا. ذهب الرجال إلى بيت العم مصطفى الذي أعدَّ طعام الغداء لأهل الجدة، أما النسوة فقصدن بيت الجد محمود الفالح ابن عم الجدة.

لم يذهب إلى بيت العم مصطفى، غافل الرجال الذين أجبروه على النهوض من جوار القبر ورجع إلى الغرفة. هُيِّئَ إليه أن كل هذا ليس إلا مجرَّد تمثيلية، سيفتح الباب ليجد الجدة تضحك على حماقته، ستسخر منه كثيرًا، ومن ثمَّ ستتوقف عن الضحك، ستظهر على وجهها أمارات السرور، لم يخيِّب حفيدها رجاءها، لقد أثبت أنه يحبها كثيرًا...

صُرَّ الباب، ظنَّ أن نبوءته تحققت، لقد حاولوا خداعه، الجدة لم تمت، إنها هنا، ها هي تُزيل أغطية الفراش كي تغسلها، خفق قلبه بسرعة، ارتفع الأدرينالين في جسده، كاد يصرخ من شدة الفرحة، ركض نحو الجدة، ليصطدم بالحقيقة، لم تكن الجدة من في الداخل، بل امرأة أخرى.

١٥

كانت فلحى تزيل أغطية الفراش، فلحى التي لم تطأ قدماها أرض هذه الغرفة مسبقًا، استغرب فعلها، اضطربت لما رآته، زجرته بصوتٍ غاضب كي يذهب إلى مقرّ عزاء الرجال، سألها عمَّا تفعل، ردَّت أن هذا ليس من شأنه. استبدَّ به الغضب حين أخرجتْ ثياب الجدة من صندوقها الخشبيّ، أدميَ قلبه وهو يُشاهد الثياب تُلقى فوق الأرض، صرخ بها أن تتوقف وتغادر الغرفة. كان الغضب قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا هي الأخرى، لقد قلبت الغرفة رأسًا على عقب ولم تعثر على الكنز، إنها تعلم أن محصول البستان لا يُنفَق منه قرشٌ واحد، وأن الجدة تجمعه وتخبّئه في مكانٍ ما، وكان أول ما فعلته بعد دفنها، القدوم إلى الغرفة في غفلةٍ من الجميع والبحث عن المال، غير أنها لم تعثر على شيء. اقتربت وصفعته على وجهه، أمسكت بتلابيبه، سألته وهي تصرف على أسنانها:

- أخبرني، أين المال؟ إياك أن تكذب.

كان مكسورًا تمامًا من الداخل، لو وجَّهت له الصفعة في الماضي، كان سيمطرها بالحجارة، طالما حثَّته الجدة على ذلك، كانت تشجِّعه على الوقوف في وجه من يحاول أذيَّته، حتى لو كانت فلحى زوجة أبيه، ربما إنها كانت تتنبأ بما سيحدث له بعد موتها، لكنه مهزوم، سُرقت منه الحياة، «وما لجرحٍ بميّتٍ إيلام». أحنى رأسه ولاذ بالصمت، اعتقد أنه بذلك يستدرُّ شفقتها، سترحمه، فهو الآن وحيد، سيردعها قلبها، إنها أمٌّ ولا بُدَّ أن في صدرها قلبًا، ستأخذه في حضنها وتطلب منه مسامحتها، ستحمله من فورها وتدعه يعيش مع إخوته، لا يصحُّ بقاؤه وحده في هذه الغرفة...

استفزَّها صمته فصفعته مجدَّدًا بقوة أكبر، بدَّدت الصفعة آماله، تساقطت دموعه تترًا، كان يشعر بالاختناق، وكأن الهواء هرب من قروح نفسه...

- حسنًا يا ابن الحرام، لا تريد أن تقول، لا بأس، أما أنا فسأخبر الجميع يا زوجة جمال.

لم يكن يتوقَّع هذه الصفعة، كانت صفعة قاسية تركت آثارها على نفسه الثكلى، انكبَّ على يدها يقبِّلها، كان ينشج، خرج صوته مرتجفًا:

- أرجو... أرجو... أرجوكِ... أرجوك يا... أرجوكِ يا أمي.

قهقهت، لم تحترم قدسيَّة الموت الذي لا تزال أذياله في الغرفة، قهقهت دون أن تبالي به، ثم قالت بصوتٍ كالسوط:

- خسئت، أتشبّهني بتلك الباغية؟ أخبرني عن مكان المال وإلا أذعت الخبر في القرية، وأنت تعلم جيدًا أن مثل هذا الخبر سينتشر في غضون لحظات.

إنها الحقيقة، الأخبار السيئة تسري في القرية بسرعة البرق، ليس أمامه خيار آخر، رفع الصندوق الخشبيَّ الذي كانت تضع الجدة ثيابهما داخله، أزاح حجرًا بين الجدار والأرض، مدَّ يده، أخرج كيسًا أسود، قبضت عليه بكلتا يديها، فتحته ونظرت في داخله، ارتسمت على وجهها بسمةٌ خبيثة، رنت إليه باشمئزاز، ثم همَّت بالخروج، تعلَّق بطرف ثوبها، توقفت وزورته بغضب، كانت دموعه قد اختلطت بمخاطه، كان في حالةٍ يُرثى لها، همس بصوتٍ واهن:

- أرجوكِ لا تخبري أحدًا.

١٦

مرَّت أيام العزاء ثقيلة. أجبره الجوع على الذهاب مع أقاربه إلى البيوت التي تصنع لهم الطعام. كانوا يضعون للصغار صحنًا لهم وحدهم، فليس من اللائق اختلاط الصغار بالكبار. كانت الجدة قد علَّمته عِزَّة النفس، كانت تقول له: إن الإنسان يستطيع تعويض كل الخسائر إلا خسارة النفس، ولكن الجوع قاهر، كما أنها ليست المرة الأولى التي سيخسر فيها نفسه. كان الناس يُرسلون الطعام للجدة، لم تعد الجدة موجودة، وهو شابٌ باستطاعته تأمين الطعام، لذا لن يتفقَّده أحدٌ بعد رحيل الجدة.

كان الجوع قد لكمه بلا رحمة في معدته الفارغة، لم يذهب لتناول الطعام في أول أيام العزاء، اعتكف في الغرفة، الغرفة التي قلبها رأسًا على عقب فور مغادرة فلحى، نثر الفراش، كسر الصحون، حتى مرطبانات المكدوس لم تسلم منه، ولما وعى ما فعل، ندم كثيرًا، لقد أتلف مئونة كانت ستقف للجوع بالمرصاد، ولكن الندم لا يأتي قبل وقوع المصيبة ليمنعها، بل بعدها ليزيد الحسرة حسرة...

بزغت نظرة جديدة في أعين ساكني القرية، تحايل على نفسه، أقنعها أنها واهمة، لم تفش فلحى السِّر، أقسمت ألَّا تفعل، ولكن الأمر تعدى النظرات في الأيام اللاحقة، صاروا يتهامسون فيما بينهم حين يمرُّ بقربهم، تظاهر بأنه لا يفهمهم.

دفعه ذلك إلى قضاء جُلِّ وقته في البستان، كان يتمنى ألَّا يرجع إليه عقب تلك الواقعة، لكنه لم يستطع. كان يرى طيف الجدة في كل شجرة وصخرة، وهي تضع يدها في المياه وتشطف وجهها، ثم تغرف وتشرب، وهي تتحسَّس الثمار لترى إن كانت نضجت أم لا، وهي تغرز البذور في التراب، وهي تقطف الثمار وترتبها في الصناديق. وعقب وقتٍ قصير وجد في البستان راحة وطمأنينة وسكينة، لا يرى سوى العم حمدان وابنه حين يضع صناديق الثمار في سيارته، ثم يلوذ بين الأشجار. كان شديد الحيطة، يحمل معه مُديةً حادة أينما ذهب، أقسم على أن يمزِّق جمال إربًا إن حاول الاقتراب منه. اشتدَّ خوفه من الظلام، ما إن يدنو الغروب حتى ينسحب إلى الغرفة، يمكث بها حتى صباح اليوم التالي.

أغناه البستان عن مدِّ يده للناس، وحماه من ألسنتهم، كما أنه ظل حلقة الوصل بينه وبين الجدة. تعلَّم الدرس، لم يعد يُخفي ثمن الثمار في الغرفة، حفر حفرةً بجانب شجرة الرمَّان المحتضنة للدالية أسفل البستان، وبدأ يدفن النقود التي تزيد عن حاجته فيها.

اشترى كرة قدم من دكان العم موسى، اجتهد كي ينسى، إلا أن قدميه كانتا تئنَّان حنينًا لها، كانتا مدمنتين لعب الكرة والجري خلفها، ليس من السهل نسيانها بهذه السرعة. نظف بقعةً أسفل شجيرات المشمش، وراح يمارس هوايته. كان يشعر في البداية بوخزٍ في نفسه يدفعه للتوقف، ولكن بعد عدة ركلات ومداعبات، استيقظ شغفه القديم، ولما تذكر فشله في الفحوصات ورحيل الجدة وكلام الناس، ركل الكرة بقوة، ثم ركل ساق شجرة المشمش، مرةً... مرتين... عشر مرات، ولما صار عاجزًا عن ركله أكثر، نظر جهة الشمال، أطلق صرخةً مُدوِّية، تردَّدت من جبال القرية، حتى سمعها كل المزارعين، همَّ بإطلاق صرخةٍ جديدة، لكن أحدهم أوقفه...

- أحمد، توقف.

١٧

أخذه العم سلطان إلى مكانه الأثير. سكب فوق قدمه بعض الكحول، كزَّ على أسنانه من الألم، جففها بقطعة من القماش. كان العم سلطان يتنهَّد بشكلٍ متتابعٍ وكأنه يزفر من داخله حِمَمًا. كانت عينا العم سلطان على حالهما، لم تتبدَّل نظراتهما، بل ازدادتا رحمةً وشفقة...

- ألم الجسد لا يخفف ألم النفس يا صديقي.

قال بصوتٍ سمع فيه أحمد نبر صوت الجدة، اهتزَّت أوتار الشوق في قلبه فحرَّكت مجاري الدمع ليتساقط...

- الدموع هي الدواء السحري الذي يُسكِّن جروح النفس.

كانت هذه دعوةً كي لا يخجل من دموعه ويذرف المزيد منها...

- والغناء أيضًا دواءٌ للقلوب العليلة.

أردف العم سلطان، ثم راح يغنّي بصوتٍ مليح...

جايين الدنيا ما نعرف ليه

ولا رايحين فين ولا عايزين إيه

مشاوير مرسومه لخطاوينا

نمشيها في غربة ليالينا

يوم تفرحنا ويوم تجرحنا

واحنا ولا احنا عارفين ليه

وزي ما جينا جينا

ومش بإدينا جينا

استرسل العم سلطان في الغناء. كان أحمد يُصغي وقد سكنت أوجاعه قليلًا. توقف العم سلطان، جرع من الزجاجة الخضراء، شرد قليلًا، ثم رنا إلى قدمه المصابة، سأله:

- كيف حال قدمك، يا مارادونا؟

فوجئ حين نطق العم سلطان بهذا اللقب، الناس لا تنشر إلا الأخبار السيئة، ترى كيف عرف إذن؟ أومأ، ثم أجاب بصوتٍ ضعيف:

- بخير.

- والحكايات أيضًا.

خاطبه العم سلطان وهو يحدِّق في الأفق، ثم أكمل:

- والحكايات أيضًا تُسرّي عن النفس الموجوعة.

عبَّ من الزجاجة، وكأنه يستعين بها ليقوى على الحديث...

- كان هناك طفل شقيٌّ، وكان الجميع يتوسَّمون فيه الخير، ظهرت عليه علامات الذكاء والشقاء منذ وقتٍ باكر، عزَّز مديح من حوله ثقته بنفسه وبقدراته، كان مثل كل الأطفال، يحلم... والحلم في بلادنا خطيئة...

حرك رأسه يمينًا وشمالًا، جرع مزيدًا من الكحول، ثم تابع:

- كان ثمَّة ذئب يصطاد الأطفال الحالمين، يأخذهم إلى مغارته وينهشهم... لم يكن الذئب غريبًا، بل قريبًا جدًّا، كان ذئبًا دميمًا لا يقبله الآخرون، لذا كان ينتقم من أبنائهم، كان بارعًا، يعرف كيف ومتى يفعل ذلك.

العم سلطان يبكي، كان يتمنى لو يستطيع التهوين عليه ومواساته، لكنه التزم الصمت، فربما يرتاح العم سلطان، لقد قال إن الدموع دواء سحريٌّ يسكِّن أوجاع النفس، ولا شك أنه موجوعٌ جدًّا، ربما كان من الأفضل التزام الصمت...

- كان الطفل قد أنهى الصف الثالث متفوِّقًا كعادته، ومكافأة له حصل على ثيابٍ جديدة وحلوى كثيرة. كان يجري في الطريق إلى بيت جده المختار، والد أمه، وكان يحمل في جيبه الحلوى، وفي قلبه حلمه: أن يصير طيارًا... كان يفرد جناحيه ويُحلِّق مثل باشقٍ شجاع، كان يظن أنه لا يوجد كائن حيٌّ بإمكانه صيد الباشق، وكم كان غبيًّا، نسي أن ثمَّة وحشٌ اسمه الإنسان، حتى الوحوش لا تسلم من أذاه...

توقف العم سلطان، اشرأبَّ بعنقه ينظر إلى شيء ما، ضيَّق عينيه ودقق النظر، ثم نهض بخفَّة بعد أن حمل حجرًا بحجم بطيخة صغيرة، صوَّبه إلى أسفل، فخرج أحدهم وراح يجري مذعورًا، صرخ العم سلطان بصوتٍ حاد:

- سأقتلك، سأقتلك يا جمال يا ابن اللعينة.

١٨

جاء الأستاذ هيثم لزيارته في الغرفة، ذُهِلَ لِمَا رآه، لو كان يعرف أنه هو ما كان ليفتح. سمع الأستاذ هيثم سكان القرية يتناقلون قصة أحمد، وكلٌّ يُزيد بما تجود به قريحته، ولما سأل أصدقاءه عنه، قالوا إنه مُختفٍ ولا يرغب في رؤية أحد. أدرك أن لا شيء سينقذه مما هو فيه إلا شغفه بالكرة، كلَّم صديقه المدرِّب، طلب منه مساعدة أحمد وقبوله في الفريق دون إخضاعه للاختبارات، أكد له أنه مع مرور الوقت، وحينما يعتاد على الآخرين سيبهره. لن يكون أحمد أول من يدخل فريق كرة قدم عن طريق الواسطة، الكثير من اللاعبين سبقوه في ذلك، بل إن بعضهم قد التحق بالمنتخب الوطني بالطريقة نفسها، وإكرامًا لصداقتهما الطويلة المتينة، وافق المدرِّب.

اجتهد الأستاذ هيثم كي يخفي حزنه من حال الغرفة التي يعيش فيها، كانت الرائحة العفنة قد استوطنتها عقب مغادرة الجدة بأسبوع، كان أحمد لا يأبه بالقذارة التي بدأت تنتشر، كان كل همِّه أن ينام فيها ليلةُ دون أن تروِّعه الكوابيس وصوت القطط والجرذان. صارت أقل نأمة في الليل تُدبُّ الرعب في قلبه الواجف...

- لقد جئت لأخبرك أن المدرِّب أسامة، الذي اختبرك في المرة السابقة، يسأل إن كنت مستعدًّا.

كان أحمد يتمنى لو تُشقُّ الأرض وتبتلعه، كان جسده يسبح في العرق، كان في قمَّة التوتر والخجل، ولكي يتخلَّص من هذا الموقف، أومأ موافقًا، تمنى أن يغادر الأستاذ هيثم فور حصوله على الموافقة، لم يفعل...

- أحمد، لا شيء يدمِّر الإنسان مثل اليأس، وتفكير الإنسان في أخطائه فقط يورثه القنوط، كل البشر يخطئون، ولكن المهم أن نتعلَّم من هذه الأخطاء، ولا تنس أن لنا إلهًا رحيمًا، حين يغلق الجميع أبوابهم في وجهك، ستجد بابه مفتوحًا على مصراعيه أبدًا، ادعُه أن يمدَّك بالقوة والعزيمة لتقوى على الخروج من الحفر التي توقعنا فيها الحياة، تلك الحفر التي نسقط فيها أحيانًا بإرادتنا، وكثيرًا رغمًا عنَّا...

ساوره شيءٌ من سعادة، استمدَّ الأمل من كلمات الأستاذ هيثم، خفق قلبه سريعًا واعتراه تردُّدٌ شديد قبل أن ينطق أخيرًا:

- شكرًا أستاذ.

لسع صوته المكلوم قلب الأستاذ هيثم، لم تعد به طاقة على الاحتمال، ما ذنب هذا الصغير ليقاسي مثل هذه الظروف؟ لو كانت هناك دولة عادلة لكانت كفلته ورعته ووقفت إلى جانبه حتى يحقق حلمه. كان أهل الأستاذ هيثم وأصدقاؤه يلومونه على خروجه في المظاهرات التي تطالب بالإصلاح وتحسين ظروف المعيشة، يقولون له إنه بخير فلماذا يحمل همَّ غيره؟ لم يوصلنا إلى هذا الحال المتردي سوى هذه الأنانية، لم يعد أحد يشعر مع الآخر، الكل يدعو «اللهم نفسي»، أنجو أنا وليَمُتْ الآخرون، خطر له أن يُحضرهم إلى غرفة أحمد ليروا بأمِّ أعينهم لماذا عليهم أن يحذوا حذوه، أن يصرخوا بأعلى أصواتهم: كفى، نريد أن نعيش.

طالما دفع ثمنًا باهظًا جرَّاء وقوفه في صف الضعفاء، كان آخره نقله من المدرسة التي لا تبعد عن بيته سوى عشر دقائق مشيًا، إلى مدرسة القرية التي تقع على بعد ٣٥ كم، مما اضطره إلى الانتقال والسكن في القرية، تقبَّل ذلك بصبر وحدَّث نفسه أن هذا ربما يكون خيرًا له، وقد يكون ذلك من حسن حظ أحمد...

- علامَ تشكرني؟ أنت موهبة حرام أن تذهب هباءً مثل كثير من المواهب التي أُهدِرت، صدقني لقد رأيت معظم لاعبي كرة القدم وهم يلعبون عن قرب، ولم أرَ أحدًا يلعب بمثل طريقتك، وستندم في المستقبل كثيرًا إن تركت شيئًا يوقفك، جهِّز نفسك وسنذهب في الغد لتتبع حلمك يا مارادونا.

خشي أن يفشل مثلما فشل في المرة الماضية، كانت قدمه تؤلمه بسبب ضربه لساق الشجرة، صارح الأستاذ هيثم بذلك، ولما كشف عنها، كانت مزرقَّة، طلب منه الأستاذ هيثم النهوض كي يذهبا إلى المستوصف، فهذه القدم تساوي الكثير.

١٩

لم يكن الطبيب موجودًا في المستوصف، شدَّد الممرض على ضرورة ذهابهما إلى المستشفى، فمنظر القدم لا يُنبئ بخير. ركبا الحافلة وقصدا المستشفى في مركز المحافظة. دخلا غرفة طبيب العظام بعد مُضيّ أكثر من ساعة ونصف، كان المستشفى مزدحمًا، فهو المستشفى الوحيد في المحافظة، ويرحل إليه المرضى من قرابة الخمس عشرة قرية، ونظرًا لحوادث السقوط، سواء عن الأشجار أو الدواب أو أماكن أخرى، فإن لطبيب العظام نصيب الأسد من المرضى...

كان الطبيب المتخرّج حديثًا في الجامعة الأجنبية، وهي إحدى الجامعات الرديئة، والتي أصبح الطلبة الميسورون يلجأون إليها للحصول على شهادة في الطب بعد فشلهم في تأمين مقعد، نظرًا لتدنّي معدَّلاتهم في الثانوية العامة، في الجامعات الجيدة، مرهقًا وضجرًا، لا يحب هذا المستشفى، قدَّم أكثر من عشرة طلبات كي ينتقل إلى مستشفى قريب من بيته، وكان يُقابَل بالرفض؛ لحاجة المستشفى الشديدة لطبيب عظام. نظر إلى قدم أحمد، فحصها، ثم أمر بإدخاله حتى يتم تجهيز غرفة العمليات...

طلب الأستاذ هيثم من أحمد الخروج وانتظاره قليلًا، ثم سأل الطبيب عن ماهيَّة العملية...

- عملية بتر، عظام قدم الصبي متهتّكة والشرايين مقطَّعة، ويجب بترها قبل استفحال المشكلة.

صُدِمَ الأستاذ هيثم، هل نُذِرَ بعضنا للشقاء؟ تساءل في نفسه، سيفقد أحمد طوق النجاة الوحيد الذي كان من الممكن أن ينتشله من وحل الفقر والانكسار، مارادونا لن يصبح أبدًا مارادونا. اجتاحه الحزن، كيف سيخبر أحمد بذلك؟ استشار الطبيب الذي نصحه بوضعه أمام الأمر الواقع، سيعرف بعد العملية.

كان جالسًا يترقَّب خروج الأستاذ هيثم. حدس أن ثمَّة خطبًا ما، قدَّر أن قدمه ربما تكون مصابة بكسرٍ قويٍّ ولن يلتئم بسرعة، لا بأس، فالمهم أنه سيلتئم بالنهاية وسيعود لممارسة كرة القدم بصورة أفضل من السابق بكثير. ندم على ركل الشجرة. لو أن العم سلطان أخذه قبل أن يفعل، ولكن العم سلطان لم يأتِ إلا بعد فوات الأوان، كالعادة...

كان الأستاذ هيثم قد حدَّثه عن أسعار اللاعبين الجنونيَّة التي قد تتجاوز الخمسة ملايين، وكيف أن الأندية تؤمّن على أقدام اللاعبين الماهرين بمبالغ طائلة، «قدماك تساويان ثروة»، قال الأستاذ هيثم باسمًا. أنَّب نفسه على غبائه، عليه الحفاظ على هذه النعمة التي وُهِبَها، وعليه أن يُحسِن استغلالها لتنقذه ممَّا هو فيه.

خرج الأستاذ هيثم من غرفة الطبيب، كان الهمُّ باديًا على مُحيَّاه، جاهد ليرسم بسمةً على شفتيه يواسي بها هذا الصبي المسكين، جلس بجانبه، عجز عن قول أي كلمة، أخرجه صوت أحمد الرفيع من حيرته...

- أستاذ، لا تخف، سأعود أفضل من الأول.

اغرورقت عينا الأستاذ هيثم، ودَّ لو كان بمقدوره تصديق هذه النبوءة، ولكن هيهات، لن تعود كما كنت أبدًا أيها الفتى، لقد سطا اللصوص على كنزك ونهبوه، ستحيا وتموت فقيرًا مُعدَمًا حتى من الأحلام، سيكذب، في العادة لا يفعل، ولكنه الآن مضطرٌ لذلك، لم يُطعه قلبه في طعن قلبٍ صغير، الوحوش وحدها من تصنع هذا، ليس وحشًا، لا تزال في قلبه رحمة تمنعه الاستمتاع بتمزيق طفولةٍ مملوءةٍ بالأحلام السعيدة، طفولةٍ ثُقِبَت بالونات فرحها، وها قد بدأت تتسرَّب وتتلاشى...

- أحمد.

نطق الاسم بصوتٍ دامعٍ، سمع أحمد فيه نبرة حزنٍ حادَّة، خشي أن تكون موجَّهةً إلى قلبه، التفت إلى وجه الأستاذ هيثم، وترقَّب بوحه...

- سيُجرون لك بعض الفحوصات.

- لا بأس.

ردَّ بصوتٍ شجاع، علَّه يبثُّ بعضًا منها في نفس الأستاذ هيثم. أخذه ويمَّما نحو غرفة المراقبة، تمدَّد

فوق السرير بينما راح الأستاذ هيثم يذرع ممر المستشفى ذهابًا وجيئة، جاءت الممرضة بعد نصف ساعة، أبلغت الأستاذ هيثم أن الغرفة باتت جاهزة.

غرز فني التخدير الإبرة في يده، لم تمضِ عشر ثوانٍ حتى كان يغطُّ في نومٍ عميق، دخل طبيب العظام، شرع في بتر القدم، فوجئ بأنها سليمة لا شِيَةَ فيها! ولكن بعد فوات الأوان، صار من المستحيل إصلاح الأمر، لقد قطع الأعصاب وإن تراجع الآن واعترف بفعلته، سيُوقَف عن العمل ويُحاسَب حسابًا عسيرًا.

ساور الممرضة هاجس أن ثمَّة خطأ، غير أنها طردته واستجابت لأوامر الطبيب حينما قرَّر إكمال ما بدأه، لن يكتشف أحد الأمر، إنه مجرَّد فتى مسكين ومن المؤكد أن أهله جاهلون، سيفرحون حين يعلمون أن وزارة التنمية الاجتماعية ستُخصص لابنهم معاشًا شهريًّا.

٢٠

كان يشعر بوخزٍ في قدمه اليسرى حين استيقظ، حاول تحريكها فلم يستطع. كان وحيدًا، لا أحد حوله، غادر الأستاذ هيثم إلى القرية، بشَّره الطبيب بنجاح العملية، أخبره أن المريض لن يصحو إلا ظهيرة اليوم التالي. نظر إلى السقف، تذكر أنه في المستشفى، لقد جاء ليعالج قدمه، لماذا يرقد هنا؟ أخبروه أنها مجرَّد فحوصات روتينية سيغادر فور إكمالها، أتراه فشل في اجتياز هذه الفحوصات أيضًا؟

أجال عينيه الثقيلتين في جُنُبات الغرفة، ثمَّة في يده أنبوب تتقاطر فيه نقاط صغيرة. قرصته معدته، لم يأكل شيئًا منذ أمس، حار فيما يفعل، هل يصرخ مستدعيًا أحدهم علَّه يُفهمه ما الذي يجري، أم يبقى صامتًا؟ وبينما يبحث عن الحل الأفضل، دخلت الغرفة ممرضة، نظرت إليه فوجدته مستيقظًا...

- كيف حالك الآن؟

كان حلقه جافًا تمامًا، أوجعته الكلمات وهي تتسلق خارجةً من كهف فمه المهجور...

- الحمد لله.

أجاب وهو يشيح بعينيه خجلًا، ممَّ كان خجلًا يا ترى؟ هُيِّئَ إليه أن وجهه لا يستحق النظر إليه، صدَّق أنه مسخ، ومن الأفضل ألَّا يطالع الآخرون هذا الوجه. اقتربت الممرضة، طلبت منه فتح فمه، أغمض عينيه لئلَّا ترتطم بنظراتها فتكشف سره، وضعت فيه ميزان حرارة، ثم طوَّقت بيديها مكان النبض، اضطرب حين مسَّت يدها يده، أحسَّ بحنان ودفء يسريان منها إليه، تمنى لو تحتضنه قليلًا، كم يحتاج لهذا الحضن. سجَّلت القراءات على ورقة...

- هل أنت بحاجة شيء؟

سألته وهي تهمُّ بالمغادرة، إنه في الحقيقة بحاجة للكثير من الأشياء، أولها الطعام والماء، تردَّد كثيرًا، ولما استجمع شجاعته، كان الأوان قد فات، غادرت الممرضة.

كان منهكًا تمامًا، أغلق عينيه باحثًا عن ملجأ الفقراء وموطنهم الأثير، النوم، جرب اللجوء إلى ذلك العالم الرحيم مرات عديدة ولم يخذله، هناك يأكل ما لذ وطاب، يلتقي الجدة يطمئن عليها وتطمئن عليه، يلعب كرة القدم في النادي وسط ذهول المدربين واللاعبين، يأتي مارادونا ليزوره بعد أن سمع عنه كثيرًا، ولمَّا يراه يلعب بتلك الطريقة، يأخذه إلى أوروبا ليسير على خطاه، حتى إنه في الآونة الأخيرة بدأ يرى جميلة في أحلامه، وذات مرة احتضنها، لم تمانع، بل على العكس تمامًا، كانت في غاية السرور.

جميلة... لم يعد يراها، احتجبت عن عينيه منذ تلك الحادثة، حرَّج عليها العم مصطفى الخروج من البيت، فإذا كان الفتيان عُرضةً لمثل ما وقع لأحمد، فالفتيات فريسة أسهل، سجَنَها في البيت، حتى البستان لم تطأه قدماها، كان يتلصَّص على مكان جلوسهم طمعًا في رؤيتها، كان في صدره كتلةً تجثم على قلبه، ولن تزول إلا برؤيتها، كبرت الكتلة مع مرور الأيام، حتى باتت يأسًا مزمنًا لا شفاء منه.

جافاه النوم، انتظر دخول الأستاذ هيثم عليه، هو الوحيد الذي يهتم لأمره، حين يأتي سيخبره أنه يتضوَّر جوعًا وعطشًا، وحينئذٍ سيجلب له الطعام والشراب. بدأ يستعيد وعيه، خُيِّلَ إليه أن قدمه خَدِرَة، لا يشعر بها، حاول مدَّ يده وتدليكها، عجز عن ذلك، انتابه شعور بالخوف، ثمَّةَ خطب ما، وبعد هُنيهة انتهى مفعول المخدِّر، جلده الألم في موضع البتر، ظن أن ثعبانًا لدغه، استجمع قواه واجتهد لينفض قدمه، هُيِّئَ إليه أنها ليست في مكانها. أخذ الألم يشتد، تلوَّى تحت وطأة تعذيبه. كانت الصرخة تبحث عن منفذٍ في فمه المطبق، وكان يكزُّ عليها بأسنانه. وكأن خيطًا من نار صعد من قدمه إلى دماغه الذي فقد السيطرة عليه، خرجت الصرخة من حنجرته مثل انفجار أسطوانة غاز، ترقَّب انهيار المستشفى إثرها، كرَّر الصراخ، اعتقد أنه قاب قوسين أو أدنى من مفارقة الحياة، رأى السواد يهجم عليه ليبتلعه، لا يريد الرحيل الآن، إنه يملك حلمًا يأمل في تحقيقه، حلمًا سيكون عِوَضه عن كلِّ الخسارات التي ألمَّت به. صرخ: لا أريد أن أموت، ليس الآن، جدتي جدتي، لم يجبه أحد، نادى على الأستاذ هيثم، لم يأتِ.

كانت الممرضات مشغولات بأعمالٍ أخرى، اعتدن صراخ المرضى، لن يذهبن إلا في المواعيد المحددة، سمعن صراخه وكأنه صرير آلة تعايشن معه. كان المرضى يسمعون صراخه ويتحسَّرون...

- اذهبي يا ابنتي واطمئِني عليه.

قالت عجوز، آومأت الممرضة برأسها آن لا، ثم همست إليها:

- لا تقلقي، هناك ممرضة تُعنَى به، لكنه يتدلَّل فقط.

خارت قواه، لم تعد به طاقة للمزيد من الصراخ، كانت عيناه تدوران في فراغ، أما رأسه فكان مثل قارب في يمٍّ مضطرب، أمواج ترفعه عاليًا ثم تخفضه، أصيب بدوارٍ شديد، وفي النهاية عالجه الإغماء، راحمًا إياه من عذابٍ غليظ.

٢١

اتخذت الحرارة من جسده ملعبًا تلهو به. رأى أشباحًا بأشكالٍ غريبة تهمُّ بمهاجمته، أقزامًا يتقافزون فوقه ضاحكين، أكل الرعب كبده، كان صامتًا ساكنًا لا يقوى على تحريك أي طرفٍ من أطرافه، كان جسده يسبح في بحرٍ من عرق، كان الموت يجلس على حافة السرير منتظرًا استسلامه، أغمض عينيه واستكان، قرَّر معانقة الموت والرحيل، همس في أذنه بصوتٍ متهدِّج: أنا أتنازل عن حلمـ...

لم تكتمل فرحة الموت، صمت ولم يُتمَّ جملته، رأى طيفًا أبيضَ يمدُّ يده إلى جبينه. لم يحن الوقت بعد يا صديقي، سنلتقي ولكن ليس الآن، قال الموت ذلك وانسحب لغرفةٍ أخرى.

صُعقت الممرضة حين قرأت درجة حرارة جسده، كانت قد تجاوزت الأربعين. استدعت الطبيب على الفور، كان طبيبًا آخر غير سليمان، طبيب العظام الذي كاد يقتله، كشف على مكان العملية، لم يلحظ وجود خلل، كانت جريمة مكتملة الأركان. غرز إبرةً جديدة في وريده الجاف، ثم أمر الممرضة بتغيير الضماد ووضع كمَّادات فوق جبينه حتى تنخفض الحرارة.

تناهى إلى سمعه وهو بين النوم واليقظة كلام الطبيب وهو يسأل عن أهل هذا الفتى، أجابت الممرضة أن لا أحد جاء إلى زيارته، حتى الرجل الذي كان برفقته قال إنه سيعود صباح اليوم، وها قد أوشكت الشمس أن تغيب ولم يأتِ.

لم تكن الممرضة تعلم بما حدث مع الأستاذ هيثم، الذي كان يظنُّ أن أهل أحمد سيهرعون إلى رؤيته فور معرفتهم بما جرى له، لكنه قوبل ببردٍ بارد حطَّم فؤاده. هل يُعقل أن يصل الإنسان لهذه الدرجة من القسوة؟ كيف يقول والد أحمد إن لا علاقة له به، وإن موته سيكون أفضل للجميع؟ لا يدري كيف أمسك بتلابيبه وراح يصرخ في وجهه، ثم لكمه لكمةً قوية طرحته أرضًا، ولولا تدخُّل العقلاء القِلَّة من سكان القرية لكان أقارب والد أحمد قضوا على الأستاذ هيثم. طلب مأمور المقسم في المستوصف الشرطةَ، جاءوا وحملوا الأستاذ هيثم إلى المركز الأمني، وجَّهوا إليه تهمة الإيذاء البسيط، وكانوا سيُطلقون سراحه في التوّ واللحظة، لولا انفجاره في وجه رئيس المركز وتوجيهه أصابع الاتِّهام فيما وصل إليه الحال إلى رموز لا يجوز ذكرها بسوء مهما كانت الدوافع، إنها خطوط حمراء مكهربة، ومن يجرؤ على ملامستها، يخسر... كثيرًا.

فتح رئيس المركز ملفًّا خاصًا عن (المشاغبين)، سهَّل وجود الكمبيوتر هذا العمل كثيرًا، أخذ هُويَّة الأستاذ هيثم، كتب اسمه في خانة البحث، ابتسم حين وجد عددًا لا بأس به من النقاط الحمراء بجانب اسمه، وضع نقطةً جديدة، لكنها ليست مثل سابقاتها، بل أكبر، استبدل على إثرها تهمة الأستاذ هيثم من الإيذاء البسيط إلى... إطالة اللسان!

انخفضت حرارة جسده، أما حرارة النفس فكانت ترتفع، كان يشعر وكأن الشمس تشعُّ من داخله، شمسًا لا نور فيها، مجرَّد نيران تحرق كل ما تصل إليه... همس بصوتٍ نحيل:

- ماء.

بخَّرت الحرارة سوائل جسده، صار جافًّا مثل ورقة في خريف، كان يابسًا مثل عود حطب سيُلقى في فوهة فرن الطابون. ترقَّب وصول الإغاثة. كان وحيدًا في أرض مقفرة، لهَا به سرابٌ لاح فوق رأسه، تراءى له النبع في أسفل البستان، نهض عن السرير وقفز في داخله، غاص برأسه وراح يعبُّ من الماء البارد، كاد يختنق، أخرج رأسه، عبَّأ رئتيه بالهواء ثم غاص مجدَّدًا في الماء، ظل يشرب ويشرب حتى ارتوى، أخرج رأسه، شهق، مسح الماء عن وجهه. هُيِّئَ إليه أن أحدهم يحدِّق فيه، أدار عنقه رويدًا رويدًا، رأى وجهًا كان مشتاقًا له كثيرًا، ابتسمت جميلة، وضعت يدها في النبع ورشقته بماء تعطَّر برائحة كفِّيها، ظلَّ مشدوهًا، ضحكت على هيئته، نعتته بالأبله وهربت، أطلق ساقيه للريح، كان سريعًا جدًّا، وكأنه يركب بساطًا سحريًّا، تجاوزها، أومأت إليه كي يقف، لم تُطِعْ قدماه أوامره، تابعتا الجري، ولما بلغ حديقةً مليئة بزهورٍ شديدة الجمال وفراشات فاتنة الألوان، وقف. التفت إلى الخلف، أشار لجميلة أن تسرع، وصلتْ، طافت بعينيها مذهولة مما تشاهد. أمسك بيدها، كانت طريَّة شهيَّة، دخلا الحديقة، كانت الورود تهتزُّ ناثرةً رائحتها الزكيَّة، والفراشات تحوم حولهما. كانا خفيفين، يوشكان أن يطيرا. في آخر الحديقة كان ثمَّة مستطيلٌ أخضر امتلأت مدرَّجاته بالجماهير. ارتدى ثيابًا رياضيَّة، وجلست جميلة في مكانٍ قريب، دخل الملعب وسط هُتاف الجماهير الصاخب وتشجيعهم المدوِّي، كانت اللافتات تحمل لقبه، مارادونا. صفَّر الحكم مُعلنًا بداية المباراة... قطع الكرة من لاعب الفريق المنافس بسرعة البرق، راوغ الفريق بأكمله، ثم رفع الكرة عاليًا، طار خلفها، عالجها بضربةٍ مقصيَّة، كادت الكرة تمزِّق الشبك، تقافزت الجماهير في المدرجات فرحة، رنا إلى جميلة، كانت مسرورة، غمزته، فهم رسالتَها التي تقول: لقد وصلت لهذا بسببي، أنا مدربتك الأولى، لا تنس ذلك، أومأ لها مؤمِّنًا على كلامها. دار بعينيه باحثًا عن الأستاذ هيثم، لم يره بين الحشود، سأل عنه جميلة، لم تسمعه جيدًا، صرخ بصوتٍ أعلى: الأستاذ هيثم، أين الأستاذ هيثم؟

- من هو الأستاذ هيثم؟

سمع صوتًا قريبًا من أذنيه يسأله، بحث عن صاحبه فلم يَستَبِن ملامحه، أجاب:

- الأستاذ هيثم الذي أخذني إلى النادي.

عاد الصوت واستفسره:

- هل هو الذي جلبك إلى المستشفى؟

تلاشى الملعب والجماهير، لوَّحت له جميلة وغادرت بسرعة، لم ينجح في استبقائها، كان في أمَسِّ الحاجة لها، لكنها كانت مثل الجميع، خلَّته ورحلت. فتح عينيه على وجه الممرضة...

- كيف أصبحت؟

كان صوتها خاليًا من نبرة الإنسان، وكأنها تتحدث إلى جهاز، لم تهتم بإجابته، لذا لم تكرر سؤالها مع أنه لم يُجب...

- ماء.

كرر طلبه على مسمعها، كان صوته محمَّلًا بالرجاء، كان أقرب إلى التسوُّل. رفعت زجاجة عن منضدة صغيرة، لم يصدق عينيه، ظنَّ أنه لن يرى الماء مرة أخرى، سكبته في كأسٍ زجاجي، تلمَّظ شفتيه وتجرَّع ريقه الذي كان مثل نتوء حاد. أمرته أن يرفع ظهره، جاهَدَ كي يفعل، لا يريد أن يخسر الماء، بذل مشقَّةً كبيرة، ضغط على قدميه، اعتقد أن الخدر لا يزال يمنعه الإحساس بقدمه اليسرى، وحدها قدمه اليمنى كانت تعينه على النهوض، لم ينجح في رفع جسده إلا قليلًا، ظلَّت الممرضة تنظر إليه، تمنى لو تقترب وتساعده، لم تفعل، خالته يمثِّل، رفعُ الجسد قليلًا لا يحتاج كلَّ هذا المجهود، أوشك أن يبكي، غمغم بخوف:

- أنا غير قادر.

دخلت ممرضةٌ أخرى إلى الغرفة، جاءت لتسأل الممرضة الأولى عمَّا حدث بينها وبين زوجها، فقد كانت قصَّت عليها تفاصيل مشكلة نشبت بينهما في اليوم السابق. وضعت الممرضة كأس الماء فوق المنضدة وراحت تُطلع زميلتها على آخر التطوُّرات. مال بجسده إلى حافة السرير، أنزل قدمه اليمنى وحاول الوقوف، غير أنه سقط عن السرير، نظر إلى قدميه، ولما لم يجد قدمه اليسرى في مكانها، أطلق صرخةً ثكلى.

٢٣

حقنوه بمهدئ، خافوا أن يؤذي نفسه، كان مصدومًا تمامًا، ما الفائدة من حياته بعد فقدان أحلامه؟ الآن تتساوى الحياة مع الموت، لا فرق بينهما ولا فضل لأحدهما على الآخر. تحسَّس موضع البتر أسفل الساق، ظنَّ قدمه مغطاةً بغشاء سحريٍّ يحجبها عن عينيه، لم يشعر بها. خُيِّلَ إليه أنهم سيجلبونها ويُعيدون لصقها بعد أن يروا كم هي مهمَّةٌ عنده، إنه مارادونا، لا يصحُّ أن يكون مارادونا دون قدم، وأي قدم، قدمه اليسرى. ظل يصرخ ويبكي، لم يعد يخجل من دموعه وصراخه، قضت الصدمة عليهما، كان يصرخ مردِّدًا بصوتٍ ملأ بالغضب:

- أريد قدمي، أريد قدمي، أريد قدمي.

لم يستجب أحد لنداءاته، فبدأ يشتمهم، ثم زحف باحثًا عن شيء يضربهم به، كان يزحف مثل طيرٍ أطبق فخ قويٌّ على عنقه، طالما اصطاد الطيور بهذه الطريقة، كان يكمن خلف الصخرة بعد أن يضع في الفخ نصف حبَّة تينٍ ناضجة، كان يرى طيور (السود) وهي تنقر جزءًا من حبَّة التين، ثم ينفلت الفخ قابضًا على عنقها. بعض الطيور كانت تبعد رأسها بحركةٍ غريزيَّة فيضربها حديد الفخ لتصاب بدوارٍ يُفقدها اتِّزانها وقدرتها على الطيران، كان يهرع ويمسك بها. بعضها الآخر كان محظوظًا فقد كان الفخ يفصل رأسها عن جسدها فترتاح. أما الطيور الأقل حظًّا فكانت تموت خنقًا في أثناء غيابه، كان الطير يجرُّ الفخ مسافةً لا بأس بها وهو يجتهد في تخليص عنقه، إلا أنه يفشل... شعر الآن بما كانت تحسُّ به الطيور، مرَّ بجميع حالات الألم: الاختناق، البتر، والموت القاسي. محال أن يكون الموت هو أكثر ما قد يؤلم الإنسان، ثمَّة خسارات تفوقه وجعًا، بالنسبة إليه كان موته أفضل كثيرًا من وصوله لهذه الحال التي لا يعلم إلى أين ستهوي به...

ثبَّته ممرضٌ قويُّ البنية، حقنه الطبيب بإبرةً أخذته إلى عالم النوم، أسجوه فوق سريره وتركوه يتصارع مع الكوابيس التي احتلَّت دماغه وحرمته الراحة، حتى نومه بات قطعةً من عذاب...

رأى نفسه وسط حلقةٍ من نار، كانت تدنو منه ولا يستطيع الفرار، لسعته ألسنتها، تكوَّر على نفسه أملًا في تخفيف ألم الحرق، ولكن كله جسده وأي جزءٍ ستمسُّه النار سيتوجَّع كلُّه، أخذت الحلقة تضيق ولا سبيل لإطفاء النار، انبثق على حين غِرَّة من بين عينيه نبعٌ صغير، سال ماؤه دافعًا اللهيب إلى الخلف، ثم هاجم قواعده مُخمِدًا إياها رويدًا رويدًا، استخفَّه الفرح لما رأى النيران تنطفئ. تذكَّر أنه عطش ولم يشرب، وضع يديه أسفل الماء المتدفِّق، ثم غرز شفتيه في الماء المتجمِّع فيهما، أوقفته الملوحة الشديدة، لم ينجح في إرواء عطشه، بل ازداد ظمأ...

رأى شبح طيفٍ في البعيد، همس بصوتٍ أشبه بالأنين: ماء. وكأن الطيف سمعه، اقترب منه وراح يرشُّ الماء فوق شفتيه ووجهه، شعر بمذاق الماء ففتح فمه بمشقَّة كبيرة، دخل الماء إلى جوفه ثم رشح إلى الداخل، تجرَّع ريقه المبتلَّ، ثم فتح فمه، تجرَّع ريقه تارةً أخرى، ثم شهق فاتحًا عينيه على وجه العم سلطان.

كانت الدموع تهطل من عيني العم سلطان غزيرة، رأى من بينها نظراتٍ موشَّاة بالأسف والشفقة، كانت نظرات لا ترى وجه إنسان، بل بقايا إنسان... حطام.

٢٤

جلس العم سلطان بجانبه حتى استعاد وعيه، كان يريد أن يسأله عن الأستاذ هيثم، كان يأمل في أن يُطمئنه بأن حلمه لن يموت لمجرَّد بتر ساقه، سيكون بمقدوره ركل الكرة حتى بدون ساق، إنه ماهرٌ جدًّا ويستطيع فعل ذلك، لكنه أحجم، ألجمته الصدمة، زرعت في حلقه غُصَّةً صلبة لا منفذ فيها سوى لنفَسٍ هزيل.

كان العم سلطان يبكي ويشرب من زجاجة الكحول المخبأة في جيبه، همَّ بإعطائه جرعةً تنسيه بعض الألم، استشفَّ أن لأحمد نفْسًا تشبه نفسَه، لن يُشفي الكحول وجعها، بل سيضاعفه. كان العم سلطان يظن أنه أسوأ الناس طرًّا حظًّا، وإلا لماذا ابتُلي بعمٍّ شرير، عمٍّ كان يتظاهر بأنه يحبه ولن يؤذيه، وبعد أن اطمأن إليه، ذبحه. استرجع تلك الصور فاضطرب قلبه، كرع من الزجاجة ونظر إليه فهان عليه ما ألمَّ به.

لم يرَ العم سلطان أو يسمع بقصَّةٍ تشبه قصة هذا الصبي، هذا الطفل الذي لم يعشْ طفولته، الطفل الذي تركه والداه لامرأةٍ طاعنة في السِّن، الطفل الذي كان يعمل في البستان مثل رجلٍ قويٍّ ولا يشتكي. كان يبتسم برضا وهو يراقبه من مجلسه وسط الصخور، تلك البقعة التي باتت تُعرَف باسمه، مجلس سلطان السكران. كان يشاهده وهو يعزق الأعشاب ويحفر التربة، ولمَّا يرى جدته تحمل المجرفة لتساعده، يهرع إليها، يأخذها منها، ثم يمسك بيدها ويجبرها على الرجوع إلى مكانها في فيء شجرة المشمش. كان في نظره رجلًا في جسد طفل، كان يُعجب به إلى حدِّ الغيرة أحيانًا.

وكأنهما ليسا بحاجة إلى الكلام ليفهما بعضهما بعضًا، يكتفيان بالنظرات المتبادَلة بين أعينهما، والتي تُزيل الستائر، ليبدو جليًّا ما يجري في مسرح نفسيهما... كرع العم سلطان ريقه، ثم شرع يفعل ما يعتقد أنه يخفف عن أحمد...

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حرٌّ طليق أم أسير في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنى أنَّني أدري ولكن...

لست أدري

وطريقي، ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟

هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور

أأنا السَّائر في الدرب أم الدرب يسير

أم كلانا واقف والدَّهر يجري؟

لست أدري...

كان صوت العم سلطان يشخب حزنًا، كان يستمع إلى غنائه ويسأل نفسه: لماذا خلقني الله، وما الذي فعلته وأغضبه ليحدث لي كلُّ هذا؟

طالما حدَّثته الجدة عن الله، كانت تقول إنه أرحم الراحمين وأقرب القريبين من القلوب المكسورة، ولكنه

مذ كَسِرَ قلبه لم يجده قريبًا أبدًا، بل ازداد بعدًا. وقرَّ في قلبه أن الله يكرهه جدًّا، ولذا أنزل به هذه العقوبات المتتابعة.

أتت الممرضة وأبلغته بضرورة مغادرة الغرفة، فثمَّة مريض آخر أُجريَت له عملية ويجب أن يحلَّ مكانه. حاول أحمد الوقوف فلم يقدر، خاطب العم سلطان الممرضة كي تدعه وشأنه، إلا أنها كرَّرت طلبها. كان في داخل العم سلطان بركان يغلي، ولما فشل أحمد في النهوض للمرة الثالثة، كرع العم سلطان الكثير من الكحول وسط ذهول الممرضة وامتعاضها، ثم راح يشتم كل شيء، كل شيء حتى...

٢٥

كان في السابق ينتفض إذا سمع أحدهم يتطاول على الذات الإلهية، لم يكن يستوعب كيف يمكن لإنسانٍ ضعيف أن يشتم من يستطيع قبض روحه في التوِّ واللحظة؟ يلهج بالاستغفار كي لا تحيق به العاقبة التي ستنزل بالعاصي الأحمق، أما الآن فبدا وكأنه يُثني على شتائم العم سلطان، بل تمنى لو يمتلك الجرأة ليفعل مثله.

لم تُفلح عصبية العم سلطان بالحيلولة دون نقله إلى غرفةٍ أخرى، أخذوه إلى غرفةٍ فيها ستة مرضى، كانت غرفةً أصغر حجمًا يفصل بين أسِرَّة المرضى فيها ستائر رمادية بالية، حمله العم سلطان من غرفة العناية المركزة وأسجاه فوق سريره الجديد. اهتزَّ جسده حين مدَّ العم سلطان يده إليه، غير أنه استسلم لمَّا رأى نظرات العم سلطان تقول: المقتول لا يؤذي مقتولًا مثله يا صديقي... كما أنه خشي إن لم يُطِعه أن يواصل شتائمه فتأتي الشرطة وتأخذه إلى السجن، لا يعلم أنه لا توجد عقوبة لمن يسبُّ الذات الإلهية، ربما كان على الأستاذ هيثم أن يحذو حذو العم سلطان، ففي النهاية الله سبحانه، غفور رحيم، وليس مثل...

كانت الغُصَّة الواقفة في حلقه قد بدأت تتخمَّر وتقطر مُرًّا، اكتسى جوفه وصدره بالعلقم، لم يذق طعامًا مذ أجرى العملية، كان جسده يخور أما نفسه فكانت تأنف كلَّ شيء قد يبثُّ فيها الحياة، اكتفى بشرب الماء حالِمًا بأن يزيل طعم المرار، لكن على ما يبدو أن المُرَّ سيمكث في مكانه أبدًا...

كان العم سلطان يذرع الغرفة ذهابًا وجيئة، أبَى الرضوخ لأوامر الممرضين بالخروج والتدخين بعيدًا عن المرضى، كان ينفث دخانًا كثيفًا، كما أنه قام بتهريب السجائر للمرضى الممنوعين من التدخين. كان قلقًا؛ يفكر فيما ستئول إليه حال أحمد، من سيُعنى به وكيف سيعيش حياته من الآن فصاعدًا؟ فكر في أخذه إلى بيته، ولما تعنَّ له القصص التي سيؤلفها الناس عنهما ظل يبحث - مجبرًا - عن حلٍّ آخر، لا يخشى على نفسه، تخلَّص من تأثير رأي الآخرين وكلامهم منذ زمنٍ بعيد، إلا أنه يخاف على هذا الصبي المسكين، فهو لا يعرف كيف يدافع عن نفسه، ولا كيف يرمي كلام الناس في مكانه الطبيعي؛ القمامة.

لم يعد بوسعه الهرب من القرية، لن ترحمه المدينة، المدن لا ترأف بالضعفاء فما بالك بالعاجزين، بات عاجزًا ولن ينجح في العثور على عملٍ يقيه سؤالَ الناس أو التشرُّد في الشوارع. وبعد تفكيرٍ طويل، قرر أن يدعه يعود إلى الغرفة، فمهما بلغ الناس في القرية من سوء، إلا أن الخير لم يمت فيهم تمامًا بعد، سيعتنون به ويعطفون عليه، كما أنه سيداوم على زيارته ليتفقَّد أحواله.

بينما كان العم سلطان مستغرقًا في التفكير بمستقبله، كان هو في عالمٍ آخر، في الماضي، لم يكن الماضي قد ابتعد، لا يزال قريبًا جدًّا، يستطيع أن يلمسه بيديه. كان يتصوَّر الحياة الجميلة في الأيام القادمة من عمق المجهول، لم يخطر له قط أن المستقبل سيصير جحيمًا، جحيمًا ستمتد ألسنته إلى زهور الماضي لتجفِّفها، ثم تحرقها لتغدو كأن لم تكن.

جاء موظفٌ وسأله عن الأستاذ هيثم، أخبره أن آخر مرة رآه فيها كانت عند باب غرفة العمليات قبل يومين...

- إذن نحتاج من يوقِّع على هذه الأوراق، لقد سمعنا أن الأستاذ لن يرجع، وكان قد وقَّع على تكاليف العملية، فكما تعرف، أنت لا تملك تأمينًا صحِّيًّا...

٢٦

وقَّع العم سلطان على الأوراق. قال إنها مجرَّد تفاهة أخرى، حين يتحول الإنسان إلى مجموعةٍ من الأوراق فنحن نعيش حياةً تافهة، وما دام الأمر كذلك، فإن هذه الحياة ستكون هي ذاتها، سواء عشتها في قصر أم في سجن. كانت فواتير المستشفى تشير إلى أن تكلفة العملية والإقامة في المستشفى قد بلغت مائتي دينار، شتمهم العم سلطان لما رأى الرقم...

- أستطيع شراء دونمًا من الأرض بهذا المبلغ يا أبناء الحرام.

إنه مُحقٌّ، المبلغ ليس هيِّنًا أبدًا، كما أن تأمينه يحتاج إلى معجزة، لم يكن أحد يعلم كيف يعيش العم سلطان ولا من أين، قدِم إلى القرية منذ زمنٍ بعيد، كان صغيرًا وقتذاك، كانت له خالة اعتنت به حتى كبر، كانت مُعدَمَة لا تملك سوى غرفة مبنيَّة من حجرٍ وطين، ورثها العم سلطان بعد رحيلها، كان يتَّخذها مكانًا للمبيت ليس إلا، كان يقضي جُلَّ وقته جائلًا في أراضي القرية، ومن ثم صار يجلس طويلًا فوق تلٍّ يطلُّ على وادٍ مزروعٍ بالرُّمان والتين، وتمتدُّ على طوله أشجار الحور، كان يعيش وحيدًا تمامًا، لا يتدخَّل في شئون أهل القرية الذين يتحاشون الاختلاط به؛ لأنه سِكِّير عربيد، غير أنهم لا يكرهونه، بل يحبونه ولو لم يفصحوا عن ذلك خشية كلام بعضهم على بعض.

غاب العم سلطان كما كان يفعل عادةً، كان يختفي من القرية حتى يظن الناس أنهم لن يرونه مجدَّدًا، ثم يظهر وكأنه لم يغب، لم يطل اختفاؤه كثيرًا هذه المرة، عاد بعد بضع ساعات، سدَّد المبلغ المطلوب، ثم طلب من الطبيب بنبرةٍ أقرب إلى الأمر أن يُعنَى به خير عناية.

جلس العم سلطان بجانبه فوق السرير، كان يغطُّ في نومٍ عميق، حدس العم سلطان وهو ينظر إلى طيف ابتسامةٍ ترتسم على شفتيه اليابستين، أنه يحلم، خمَّن أنه يحلم بكرة القدم، لقد كان يسمع من أطفال القرية عن مهارته، كان يراه يركض في البستان بسرعة، قدماه قويَّتان، يموج بجسده مثل أفعى، كان يضحك على حركاته، ودَّ لو يستطيع مصارحته بأن الحلم في هذه الأوطان مصيدة، لا تحلم، عِشْ حياتك يومًا بيوم ولا تفكر. لقد توقف عن التفكير منذ أمدٍ بعيد.

طافت برأسه تلك الأيام لمَّا كان شابًّا قبل أن يُدمن الخمر، كان يسأل نفسه دائمًا لماذا حدث له ذلك، لماذا ابتلاه الله بهذا الشيء؟ كيف استسلم وسلَّم جسده لعمِّه المخبول؟ اجتاحت رعدة بدنه، ازدرد ريقه، رأى عمَّه سلمان جالسًا بجانب الطريق، لاح وكأنه ينتظر أحدهم، ابتسم الطفل سلطان لما شاهده، أشار إليه أن يقترب ففعل، إنه عمُّه ولن يؤذيه، كان أبواه قد حذَّراه من الاقتراب منه، لكنه لم يسمع لنُصحِهما، لا يصحُّ أن يكون عمُّه سلمان وحشًا كما يدَّعون، كان طفلًا صغيرًا، بريئًا لا يملك خبرة في شئون الإنسان...

- ما هذه الثياب الجميلة؟

سأله عمُّه سلمان بصوتٍ حنون، أيقن الطفل سلطان أن أهله أشرارًا، كيف يكرهون مثل هذا الكائن الوديع؟ مسَّد عمُّه سلمان على ثيابه...

- تبدو متقنة الصنع.

قال وهو يضغط عليها بقوة، ساور الطفل سلطان بعض الخوف، أدخل يده في جيبه وأخرج الحلوى، مدَّها نحو عمِّه، ابتسم، أخذها وراح يلوكها في فمه بطريقةٍ مقزِّزة. كان الطريق خاليًا، وكأن القدر تعمَّد فعل ذلك...

- لماذا يكرهني أهلك يا سلطان؟

استفهمه عمُّه، تلعثم قبل أن يجيب:

- يقولون إنك شرير.

قهقه عمَّه كثيرًا، ثم عاود سؤاله:

- هل أنا شرير؟

- لا، إنك طيِّب.

شرد عمُّه قليلًا، كان ثمَّة صراع قد نشب في داخله، هل يترك هذا الطفل المسكين يمضي، أم يصطاد عصفورين بحجر؛ ينتقم من شقيقه وزوجته، ويُشبِع جوعه؟ كان الشرُّ قد تغلغل فيه وسرى مع دمه، أمسك بيد الطفل سلطان ثم قال:

- أنا طيِّب، هل أنت صادق أم تراك تخدعني؟

ردَّ الطفل سلطان دون تردُّد:

- والله لا أخدعك.

- تعال يا ابن أخي الجميل واجلس في حضني قليلًا.

لقد كنتُ طفلًا صغيرًا، جلستُ في حضنه، كنتُ أظنه يحبني ولن يؤذيني، ولكنه قتلني، جرَّني إلى كهفه وذبحني هناك، لم أخرج من ذلك الكهف، لقد دفنني هناك، قتل الطفل الذكيَّ بلا ذنب، ترك منه مختلًّا لم يعد يطيق الحياة، لقد هربت من القرية لأنسى، ولكنني كلما ابتعدت تذكرت أكثر، ماذا أفعل؟ هل أقتل نفسي لأرتاح.

كان العم سلطان يصرخ، يبدو أنه فَقَدَ السيطرة على نفسه، توقَّف بعد أن رأى عيني أحمد تُحدِّقان فيه، كان متكوِّرًا على نفسه في الزاوية، هُيِّئَ إليه أن العم سلطان عاد صغيرًا، طفلًا في الثامنة من عمره يرتدي ثيابًا جديدة ويملأ جيوبه... بالحلوى.

٢٧

كانت حالة أحمد قد تحسَّنت، جاء الطبيب وأخبرهم أن بوسعه المغادرة في أي وقت، توجَّس خيفة من الخروج إلى الحياة، تُرى كيف سيستقبله الناس وقد صار يحمل عاهتين لا تُمحيَان أبدًا؟ وعقب تفكيرٍ طويل انتابه بعض الارتياح، فلربما أن سكان القرية سيغضُّون الطرف عمَّا فعله به جمال، سيُشفِقون على حاله، لقد بات عاجزًا، ستلهيهم العاهة الظاهرة عن تلك المخبوءة، تُرى من منهما أشدُّ ألمًا، عاهة النفس، أم عاهة الجسد؟ تساءل في نفسه، لم يكن يعرف الجواب، غير أنه مع مرور الأيام، سيعلم.

أتى العم سلطان، كان مشروبه قد نضب فذهب لجلب زجاجةٍ أخرى. إنه مثل الشبح لا أحد يعلم كيف يتنقَّل، كان ثملًا جدًّا، حديثه ثقيل يكاد يمسك بالكلمة بيده ويفصلها عنوةً عن لسانه، لكنه كان يعي ما يجري، حدثه الطبيب سليمان عن وجوب أخذ المريض إلى مستشفى خاص في العاصمة كي يصنعوا له قدمًا، كان العم سلطان مشمئزًا من وجه الطبيب لا ينظر إليه، أحسَّ أن نفس هذا الطبيب آثمة، فيها شيءٌ من نفس عمِّه ونفس جمال.

ذهب العم سلطان ليجيء بسيارة، ظل وحده. كان قد نَحُلَ كثيرًا في بضعة أيام. كلما تذكَّر أنه لن يلعب كرة القدم طيلة حياته بكى، كان بحاجة الجدة أمينة كثيرًا، كم يتمنى أن ينام في حضنها، الجدة لن تأتي فلماذا لا تدع جميلة تزورني، كان يسأل وينتظر أن تدخل جميلة عليه، غير أنها لن تفعل، لقد مُنِعَت من الخروج، ليس بوسعها التمرُّد ورفض قرار الأب، لم يكن ذنبها أن يرى العم مصطفى أحمد في تلك الحالة، لم تكن هي التي أخطأت، لماذا تُعاقَب على فعلٍ لم تقترفه؟ إلا أن العم مصطفى لم يكن ليستمع لأيٍّ من هذه الترَّهات، الناس لن تلومه على سجنه ابنته، لكنها لن ترحمه حين تخطئ، ودرهم وقاية...

كان يشعر بألمٍ في أسفل قدمه، كان خجلًا لا يبوح، يعظُّ عليه بأسنانه ويكتمه داخله، اعتاد ذلك، ثم بعد أيام صار الألم يخفت. نهض عن السرير وحاول أن يقف عليها مجدَّدًا، وما إن حطَّت على الأرض حتى سقط، اخضلَّت عيناه التي ستظل رطبةً أمدًا طويلًا، امتدَّت يدٌ ورفعته عن الأرض...

- سيكون بوسعك الوقوف والمشي حين تضع الجبيرة.

قال العم سلطان مواسيًا، لم يخف من اقتراب العم سلطان، سكنته الطمأنينة، لن يؤذيه العم سلطان الطيِّب، بل سيكون عكَّازه الذي سيُعينه على الوقوف والمشي.

أسنده العم سلطان وأعانه على الخروج من المستشفى، هو الذي كان يذرع أراضي القرية خفيفًا سعيدًا لا يقوى على السير بضع خطوات. ركبا في السيارة وانطلقا إلى القرية، وكأن الأشياء كلها تغيَّرت... الأشجار، الأضوية، الجبال، السماء، حتى خفقات قلبه الصغير...

كان أذان العصر يُرفع من المساجد، هبَّ النسيم من الجبال والوديان حاملًا معه رائحة الأرض والثمار، هُيِئَ إليه أنه يشم رائحة الجدة، تخيلها هناك في البستان تجلس في فيء شجرة المشمش، ترنو إليه وهو يحفر الأرض ويبذر البذور، تدعوه لأخذ قسط من الراحة وشرب الشاي الذي تُعدُّه على النار، يمسح العرق عن وجهه ويخبُّ نحوها، تحثُّه على العناية بالبستان بعدها وتوفير النقود التي يجنيها من بيع ثماره حتى يكبر، يعدها أن يفعل، تلهج بالدعاء له، تعتريه الراحة والأمل، يعلم أن قلب الجدة أبيض، وكان قد سمع أن الله يستجيب لدعاء القلوب الطيِّبة. تنهَّد ثم حدَّث العم سلطان حين شارفا على الوصول:

- عم سلطان.

التفت العم سلطان إليه ليرى إن كان بحاجة لشيء، فأردف:

- أريد الذهاب إلى البستان.

أشاح العم سلطان بوجهه بسرعة دون أن يرد، عجز عن مواجهته بالحقيقة، كيف سيخبره أن أباه اللعين كان الوريث الشرعيَّ للجدة، وأنه باع جميع أملاكه فور حصوله على حصر للإرث... ثم رحل عن القرية.

٢٨

استقبله سكان القرية بالحوقلة والاسترجاع والحث على ضرورة أخذ العبرة مما حدث له، قالوا إن الله عاقبه على ما اقترفته يداه، كانت جميلة تسترق النظر من وراء نافذتها، لم تصدق حين سمعت الخبر، أحمد صديقها الطيِّب يفقد قدمه، كيف سيلعب كرة القدم؟ كيف سيجري بين الصخور بحركات مضحكة؟ أحمد الذي بات قلبها يخفق خفقات غريبة في حضوره في الآونة الأخيرة، ولكن لماذا فعل ذلك؟ لماذا تخلَّى عن رجولته وأذعن لجمال؟ كثيرًا حذَّرتها عنه، لقد راوده أكثر من مرةٍ عن نفسه، كان يهرب بسرعة، لماذا لم يهرب هذه المرة؟ كيف سيذهب إلى المدرسة يا ترى؟ أشفقت عليه، تمنَّت لو كان بمقدورها الخروج للقائه والاطمئنان عليه، أقعدها خوفها من عقاب أبيها الأليم، كان حذَّرها بصرامة، محادثة أحمد ستؤدي إلى ذبحها. نادتها أمها، أسدلت الستارة وذهبت لتساعدها في أعمال المنزل.

طاف بعينيه الخجولتين على الوجوه، كان يقرأ فيها كلامًا متباينًا، بعضها يشفق عليه، بعضها يشي بأنه يستحق ما جرى له، وبعضها لا يبالي. كان يشعر بالاختناق، بالأسى، بالغربة، بات غريبًا عن القرية التي وُلِدَ وترعرع فيها، غريبًا لا يأبه لأمره أحد. لقد انفضُّوا بعد أن هنَّأوه - على مضض - بسلامته. تركوه مع العم سلطان ورحلوا، إنهما ثنائيٌّ يناسب بعضهما بعضًا، سِكِّير وخاطئ...

نقد العم سلطان سائق السيَّارة الأجرة، وضع أحمد يده فوق كتفه ونقز إلى الغرفة...

خشي أن تخرج الجرذان من الغرفة حين يفتح العم سلطان بابها، لكنه فوجئ بها نظيفة. خمَّن أن العم سلطان هو من نظَّفها، أو ربما دفع للخالة سعدى كي تفعل، فهي تقدِّم خدماتٍ مثل هذه لمن يطلب. أسجاه العم سلطان فوق المرتبة، اقتحمت أنفه رائحة الجدة حين استقرَّ رأسه فوقها، تجرَّع ريقه وكتم دموعه، سأله العم سلطان إن كان بحاجة شيء، أومأ أن لا، أخبره أنه سيعود لرؤيته بعد ساعة، ليس من الحكمة البقاء وحدهما. همَّ العم سلطان بالمغادرة، وقبل أن يخرج من الباب، سأله بصوتٍ مخنوق:

- هل سيأتي أبي لرؤيتي؟

أطلق العم سلطان زفرة طويلة، التفت إليه وطلب منه الخلود للراحة، ثم قال بصوتٍ يكتسي بالخجل جراء تجرؤه على كذبٍ لم يعتده:

- لا تخف، بالتأكيد سيأتي.

جرحت فرحة أحمد - التي بدت على مُحيَّاه - قلبَه، فهرب لئلَّا يبدِّدها.

رفع ظهره وأسنده إلى الجدار، ثنى قدمه وقرَّبها من عينيه، تخيَّلها شجرة، شجرة ستُنبت مرةً أخرى، تحسَّسها بيده، كانت مسطحة لا نتوء فيها. أزال عنها الشاش، أغمض عينيه ثم رفع كفيه ودعا الله بأن تكون قدمه قد أورقت منبئة بأنها ستنمو لاحقًا، فتح عينيه ببطء، تلاشت أحلامه، صرف على أسنانه بغضب، رفع رأسه لأعلى وأوشك أن يشتم، لكن شيئًا ما أوقفه، خطرت له الجدة، كانت تُحذِّره دائمًا من إغضاب الله سبحانه، فغضبه عاتٍ يسحقه بلمح البصر، اعتراه الخوف، خشي أن يسقط سقف الغرفة المترهِّل على رأسه، راح يستغفر بلسانه، حاول إجبار قلبه على المشاركة، إلا أنه أبى...

٢٩

كان يرنو إلى السقف، يفكِّر فيما يفعل، عنَّ له الذهاب إلى البستان، أقعدته وعورة الطريق، كان المكان حوله شديد الهدوء، غالبية سكان القرية قصدوا بساتينهم ومزارعهم، كان مستغرقًا تمامًا في أفكاره حتى سمع الصوت الذي أجبره على النهوض والخروج لإلقاء نظرة، صوت الكرة وهي ترتد من الأرض، سَحَرَه الصوت، لم يستطع مقاومته. أمسك بعكَّاز الجدة واستند عليه، نهض وقفز على قدمه اليمنى، فتح الباب وراح يتتبَّع الصوت، رأى بعض أصدقائه الذين كان يلعب معهم عائدين من الملعب، همَّ بالنداء عليهم، كمَّمت يد خفيَّة فمه ومنعته، يدٌ قويَّة ذات رائحة نتنة، كانت يد الفضيحة والانكسار.

أغلق الباب وعاد إلى مجلسه، بدأ الجوع يقرص معدته، لا يوجد في الغرفة شيء يؤكل، ولن يفقده أهل الإحسان بعد اليوم. سينتظر مجيء العم سلطان، قال إنه لن يتأخر. استجدت عيناه النوم كي يهرب من هذا العذاب، جافاه النوم مثلما جافته الحياة، من يصدق أن هذا الطفل الممدد فوق فراش رثٍّ كان قبل أيامٍ شعلةً من نشاط وحركة؟ كان قريبًا من تحقيق حلمه لولا... لولا من؟ من كان السبب في حرمانه من الوصول إلى ما يصبو إليه؟ أبوه، أمه، جمال، فلحى، أهل القرية، الحياة ذاتها، كلهم مسئولون عمَّا حدث. استبدَّ به الغضب، تمنى لو يجيء زلزال مدمِّر يقضي على كلِّ شيء.

ارتفع صوت ساكني القرية، بدأوا يعودون إلى بيوتهم، فرد الليل جناحين آسودين مرعبين فوق جبال القرية، انتشر صوت الجداجد، صار جسده يسخن، وكأنه في قدرٍ مملوء بماءٍ وُضِعَ فوق نار، كلما ارتفعت حرارة الماء ارتفعت حرارة جسده. دعا الله ألَّا يحدث هذا، إنه وحيد في هذه الغرفة، لا يوجد من يُعنَى به، ربما يموت دون أن يعرفوا، سيتعفَّن قبل أن تثير رائحته الريبة، سيتأففون منه، عاش عفنًا وسيموت عفنًا، ربما لن يدفنوه في المقبرة، بل يلقونه في مكبِّ النفايات مثل قمامة كريهة.

اشتدت الحرارة، كان بحاجة للمزيد من العناية الطبيَّة، لا تزال العملية الجراحية تُلقي بظلالها على جسده الذي فقد عضوًا، وكان يثور رفضًا لما حدث، من سوء حظه أن جسده كان شديد النشاط، يحتاج وقتًا طويلًا حتى يهدأ، سرت الحرارة العالية في جلده ودمه، غلى دماغه وأخذ يهذي، نادى على الجدة فلم تجب، الأستاذ هيثم، لا فائدة، العم سلطان، أمه، أبيه، أصدقائه، لا شيء، لا أحد.

ثبَّته أحدهم من أطرافه، فتح فمه ليصرخ، ليستنجد، ليستغيث، حتى فمه خذله، أُنهِك تمامًا، استسلم. حدَّث مُقيِّده، دعاه ليفعل به ما يريد، لن يشكِّل هذا فرقًا، خُيِّلَ إليه أن جمال هو الذي أوثقه، فتح عينيه بصعوبة ونظر إليه، تراءى له أن جمال ليس وحيدًا، لقد أحضر ذئبًا آخر، إنه طريدة سهلة، سينهشانها ثم يغادران.

انحنى جمال ودنا من وجهه، كان وجهه أحمر، ربما ذبح فريسةً فرشقه دمها، سمعه يغمغم بكلامٍ غير مفهوم، وكأنه يطلب عفوه، يسأله الصفح والشفاعة. كان وجه جمال مرعوبًا تمامًا، جذبه أحدهم من الخلف وطرحه أرضًا، ثم ركله بقوة، هل يتصارع الذئبان عليه؟ امتدَّت يد الذئب الثاني إلى جبينه، لم تكن يد ذئب، كانت بها مسحة من دفء، ربما تكون يد العم سلطان، إنها تشبهها، أحس بشيء بارد فوق جبينه، أنهك جسده تمامًا، ولما لم يستطع الصمود أكثر، غطَّ في نومٍ عميق.

٣٠

تحامل على أوجاعه ونهض، كان قد أغرق فراشه بالعرق والبول، قصد الحمَّام كي يغتسل. اجتهد كي يسترجع أحداث الليلة الماضية، خُيِّلَ إليه أن أحدهم ظل جالسًا فوق رأسه، يبلل قطعًا من القماش ويضعها فوق جبينه، ظنَّ أن الحمى قد صوَّرت له أشياءً غير حقيقية، هل رأى جمال فعلًا؟ من كان برفقته؟ كان يعتريه صداع يبدد الصور فور اقترابها من الوضوح، وحينما وقعت عيناه على الصحن ومزق القماش المبلَّلة، أدرك أنها ليست مجرَّد ظنون.

كاد يسقط أكثر من مرَّة، الأرض غير مستوية والمشي فوقها بقدمٍ واحدة مُضنٍ، فوجئ بأحدهم ينادي باسمه، التفت فرأى جارهم مجدي المسيحي، لم يكن من الجيران الملاصقين، تفصل بينهم بعض البيوت. كان قد صعد فوق السطح ليقرأ، يكبره مجدي بأربع سنوات، ليس من أصدقائه، الأطفال المسيحيون يفضِّلون البقاء داخل بيوتهم أو الغدو والرواح معًا، لا يصادقون الأطفال المسلمين إلا نادرًا. استغرب، تُرى لماذا يناديه مجدي؟ طلب منه أن ينتظر قدومه، جاء بسرعة، هنَّأه بالسلامة وسأله عن حاجته، دُهِشَ، صحيح أن المسيحيين يعيشون في القرية منذ زمنٍ بعيد، وهم - كالمسلمين - مزارعون، ويشاركون في المناسبات المختلفة التي تحدث في القرية، غير أنه لم يخطر له على بال أن يكترث أحدٌ منهم لأمره.

ألحَّ عليه مجدي ليخبره عمَّا يحتاجه، ولمَّا تحدث بعد صمتٍ ثقيل، هرول مجدي إلى الحمَّام، ملأ الدلو بالماء، وضع قطعة الصابون في مكان قريب، ثم أعانه على الولوج وتركه كي يستحم. بدأت الحمى تنحسر، كان يعتقد أنه لا يزال يهذي أو يحلم. تطامن كي لا يرتطم رأسه بسقف المرحاض، أسند جسده إلى الجدار الخشن، مدَّ يده نحو الدلو، أمسك بالعبوَّة البلاستيكية، كاد يسقط لولا أن تدارك الأمر في آخر لحظة. كرر المحاولة، أمسك العبوَّة بصعوبة، غرف بواسطتها ماءً باردًا، سكبه فوق جسده، ثم أخذ قطعة الصابون وراح يفرك جلده المتَّسخ. خرجت الجدة من ذاكرته، كانت تُجلِسَه في الطست المعدني، تسكب فوق جسده الماء الساخن، ثم تفرك جسده بالليفة التي تصنعها من شوال البصل الفارغ، كانت تفركه بقوة، كان يتألم، فتزجره، تقول إنه رجل، والرجل عليه احتمال أفظع الأوجاع دون أن يعلم أحد. بكى، تمنى ألَّا يفعل، لا يروم إزعاج الجدة في قبرها، بيد أن الرجال حين يبكون، يفيضون، ليس من السهل إيقاف جريان دموعهم. اقتعد أرض المرحاض الباردة. غسل قدميه. مدَّ يده إلى أسفل قدمه اليسرى وأخذ يدلِّكها بقطعة الصابون بشدَّة؛ علَّ فرجةً تنفتح فيها فتخرج قدمٌ جديدة، ضغط حتى وخزه الألم فتوقف، تكوَّر على نفسه. شعر بأنه خاوٍ، ثمة شيءٌ سُرِقَ منه، شيءٌ آخر غير قدمه، بحث عنه طويلًا، لم يعثر عليه. ضرب قطعة الصابون بالجدار، خاف أن يخرج له الجنيُّ الذي يتَّخذ من المرحاض سكنًا، كما كانت تخبره الجدَّة، وكان آخر من يتمنى رؤيته الآن هو الجنيُّ.

سمع صوت قرقعة في الخارج، ابتهج قلبه قليلًا، هُيِئَ إليه أن أباه أتى، لم يُطعه قلبه على تركه وحيدًا، سيأخذه ليعيش مع إخوته، وإن عارضت فلحى سيوقفها عند حدِّها، لا يُعقل أن تكون مكانة الزوجة أكبر من مكانة الابن. ارتدى ثيابه التي أخفت آثار الاستحمام لفرط اتِّساخها. كان باب الغرفة مفتوحًا، شكَّ أن الهلاوس تعبث برأسه، إنه يشم رائحة طعام تهبُّ من الداخل، سال لعابه ونسي أوجاعه. حجل نحو الغرفة. خاب أمله، لم يرَ أباه، بل مجدي. لقد أحضر صينيةً مليئةً بالطعام. ابتسم في وجهه، خاطبه بمودَّة:

- هيا، تعال يا أحمد، أسرع قبل أن يبرد الطعام.

اعتراه الخجل، تمنَّع في البداية، إلا أن الجوع وإلحاح مجدي هزما صلابته وقدرته على الاحتمال...

- لقد طبخت أمي هذا الطعام خصيصًا لك.

قال مجدي، ثم تناول شيئًا وقرَّبه منه...

- بالمناسبة لقد وجدت هذا الكيس خلف باب الغرفة.

أخذه، فكَّ الرباط، فتحه ونظر في داخله، امتقع وجهه. سأله مجدي ما الخبر. تردَّد، لكن فضول مجدي وإصراره على المعرفة، وخوفه مما رأى وحاجته لرأي أحدهم، دفعه إلى إطلاعه عليه. فغر مجدي فاه حينما شاهد ما يحويه الكيس.

٣١

كان المبلغ بعد أن أحصياه عدَّة مرات ٢٠٠ دينار، إنه مبلغ ضخم، تُرى لمن يكون؟ وهل هذه النقط دماء؟ وإن كانت كذلك فمن أين أتت؟! استشار مجدي فيما يفعل، نصحه بإخفائه؛ فهو في مسيس الحاجة إليه، وإن ظهر صاحبه يعيده إليه. ذهب مجدي وخلَّاه وحيدًا يصارع أفكاره. أرعبته فكرة خروج جنيٍّ من الدماء، لن يخبئ المال في الغرفة، بحث عن مكان آمن، وجدها، لن يجد أفضل من البستان. سيضيف هذه النقود إلى المبلغ القليل الذي أخفاه هناك، سينتظر قدوم العم سلطان، ثم يُطلعه على السِّر، العم سلطان طيِّب وليس ممَّن يفشون الأسرار، وربما يكون لديه حلٌّ أفضل.

عاودته صورة فلحى وهي تمزق أغطية الفراش وتبعثر ثياب الجدة، خشي أن يصلها النبأ فتأتي على حين غِرَّة لتسرق النقود مثلما فعلت سابقًا، دسَّ الكيس داخل كنزته ولهج يدعو كي يجيء العم سلطان بسرعة. عبرت أمام عينيه أجزاء من الأحلام التي رآها في الليلة السابقة، حاول تجميع قطعها: وجه جمال، مزق القماش المبللة، الصوت الدافئ، وجه العم سلطان!

انتابته الحيرة، أمن المعقول ألا تكون تلك أحلام أو هلاوس، بل حقيقة؟

جذبته الأفكار إلى التأمُّل في حياته والوتيرة السريعة التي تبدَّلت فيها وعمَّا يخبئه القادم، كيف سيخرج من الغرفة؟ كيف سيواصل حياته؟ كيف سيذهب إلى المدرسة؟ هل سيأخذه أبوه ليعيش معهم؟ أين ذهب الأستاذ هيثم؟ داهمه النعاس، نام على أمل الاستيقاظ على واقع أجمل، واقع كذاك الذي كان يفتح عليه عينيه قبل أيام معدودات.

لم يغفُ إلا قليلًا، سمع جلبةً في الخارج أيقظته. تجرَّع ريقه، تساءل إن كان ثمة مصيبة جديدة، اقتربت الأصوات من الغرفة. خبأ كيس النقود في الشق أسفل الجدار. استند على العكَّاز وحاول أن ينهض، هزمه الخوف فلم يستطع الوقوف، زحف نحو الباب ليرى ما الذي يحدث. بدا وكأن حشدًا يقترب من الغرفة، اجتاحه خوف شديد، توارى خلف الباب مرعوبًا...

- هذه الغرفة التي يقيم بها.

كان صوت العم مصطفى. قرع الباب، لم يجب، كتم أنفاسه كي يوهمهم أن لا أحدِ في الداخل، كان خوفه غير مبرَّر، غير أن الصدمات التي تعرَّض لها جعلته يتوقع الأسوأ دائمًا، طُرِقَ الباب بقوة أكبر...

- أحمد، افتح الباب، الشرطة تريد رؤيتك.

٣٢

يا إلهي، هل أنا منذور للعذاب؟!

كاد يُغشى عليه حينما سمع اسم الشرطة، تمنى لو تُشقُّ الأرض وتبتلعه، أو لو يستحيل مثل ذلك العلق الذي كان يلتصق بساق الدالية، يا له من محظوظ! لقد كان يذوب حين تضع الجدة فوقه القليل من الملح، لو يضع أحدهم فوقه شيئًا يُذيبه. ضغط ظهره إلى الجدار، كأن يحاول الولوج فيه. الشرطة تريده، لكن ما الذي تريده الشرطة مني؟ ربما جاءوا من أجل النقود، حسنًا فليأخذوها ويرحلوا، لا حاجة لي بها، ربما إنني لا أزال أهذي، لعلِّي محموم فقط، قد أكون نائمًا، وما أنا فيه مجرَّد كابوس، طالما زارتني مثل هذه الكوابيس، غير أنها كانت تتلاشى فور فتحي عيني، هيَّا، سأفتحهما الآن ولن يكون هناك شرطة، أغمض عينيه وفتحهما، دون فائدة، إنها الحقيقة.

دفع العم مصطفى الباب، وجده خلفه يرتعد...

- إنه هنا.

قال بصوتٍ قاسٍ. لماذا لم يخدعهم؟ لماذا أخبرهم بالحقيقة؟ لماذا لم يرحمني من عذابٍ جديد؟ دخل ثلاثة من رجال الشرطة، بكى ورفع يديه ليحمي وجهه من ضرباتهم، لم يلتقِ بالشرطة من قبل، كان خائفًا وحسب، في بلادنا مجرَّد ذكر اسمهم يثير الرعب...

- أين سلطان؟

سأل أحدهم بصوتٍ ميكانيكي، كان خاليًا من الحِسّ الإنساني، آلة تروم إنهاء عملها فقط. ازدرد ريقه، كان جافًّا نتنًا، عنَّ له النبع في البستان، كان يقفز داخله ويسبح في الأيام الحارَّة، يعبُّ من مائه العذب حتى يرتوي.

- أين سلطان؟

كرر الشرطي سؤاله بعد أن اقترب منه أكثر، رجا صوته أن يخرج لينقذه من مغبَّة الصمت، الصمت الآن ليس فضيلة، بل خطيئة كبيرة، والاستمرار فيه سيثير جنون الشرطة، وليس من مصلحته أن يثوروا، عليه أن يُجيب بسرعة. خذله صوته مثلما خذله من قبل مرات عِدَّة، توسَّله أن يقف إلى جانبه ويطلع، فهذه المرة العاقبة وخيمة.

أمسك أحد رجال الشرطة بياقة كنزته البالية وجذبه بقوة فمزَّقها، بكى وناح كي يرحموه، لم يقترف ذنبًا قط، فلماذا يحدث هذا إذن؟

- أَجِبْ خيرًا لك، أين سلطان؟

سيُفشِي لهم أسرار أهل القرية جميعهم، لو يسقونه رشفة من الماء فقط. أشار بيده إلى موضع النقود، لم يفهموا مراده، اقترب العم مصطفى، رجاهم أن يسمحوا له بمحادثته، سيحاول أن يقنعه بالتعاون معهم، وإن لم يستجب، فذنبه على جنبه وليفعلوا فيه ما أرادوا. كان يريد أن يُثبت لهم بأنه كبير القرية، والجميع دون استثناء يطيعونه. أفسحوا له المجال...

- أحمد يا ولدي، لا تخف، لن يؤذوك إن أخبرتهم، فقط يريدون معرفة مكان سلطان.

رغم أن نظرته للعم مصطفى قد اختلفت عمَّا كانت عليه في الماضي، حيث كان يوقِّره ويحترمه كثيرًا، ولكن مُذ وقع في مصيدة المصائب ولم يعنه أو يسأل عنه، صَغُرَ مقامُه عنده وصار مثل البقيَّة، بالرغم من ذلك سَرَتْ في نفسه بعض الطمأنينة...

- أخرجني أمس من المستشفى...

تكلم من بين دموعه بصوتٍ ضعيف مرتعش، ثم أردف:

- قال إنه سيأتي ليطمئن عليَّ ثم غادر.

- وهل أتى؟

غار صوته بعيدًا حين سأله الشرطيُّ، اكتفى بالإيماء أن لا.

تنحنح العم مصطفى وكأنه سيُلقي خطبة الجمعة أو موعظة كدأبِه...

- الأمر خطير يا أحمد، إيَّاك أن تكذب.
- والله لست أكذب.
- أحمد، إن أخفيت شيئًا سيعتبرونك شريكًا في الجريمة.
- أي جريمة؟

سأل مجدي الذي حضر على الفور لما رأى التجمُّع أمام الغرفة.

أجاب العم مصطفى دون أن يلتفت إلى مجدي:

- مقتل جمال.

٣٣

اضطربت مشاعره، لم يدرِ، أيفرح أم يحزن؟! خصوصًا أن المتهم الأول في مقتل جمال هو العم سلطان. تمنى ألَّا يقبضوا عليه. تركوه ورحلوا بعد أن أمروه أن يبقى متيقِّظًا وأن يبلغ العم مصطفى فور رؤيته سلطان، وعدهم أن يفعل. أضمر نيَّة مساعدة العم سلطان، لن يخبر أحدًا إن أتى لزيارته، لن يفعل حتى لو عذَّبوه أو سجنوه.

انتشر خبر مقتل جمال في أرجاء القرية كانتشار النار في الهشيم، أكثر أهل القرية أسعدهم هذا النبأ، أما القِلَّة فقد أسِفوا لجمال وحياته البائسة التي عاشها، ومنهم مجدي. قصَّ عليه حكاية جمال الذي ترعرع في أسرةٍ مُعدَمة، لم يكونوا يملكون بيتًا، بل غرفةً واحدةً من حجرٍ وطين أصغر من الغرفة التي يعيش فيها، كان الناس يتحدثون عن أبيه الذي أصيب بمرضٍ عضال أقعده في الفراش أبكَمَ مشلولًا لا يقوى على تحريك أطرافه. صمت مجدي قليلًا قبل أن يكمل، سكن الحزن ملامحه، ثم حدَّثه عن رجلٍ غريب كان يدخل على أم جمال، يزني بها أمام زوجها المشلول وطفلهما الصغير، كانت تأمن من زوجها، فهو بمثابة ميِّت، يرى كل شيء لكن لا حول له ولا قوة، والطفل لا يزال صغيرًا ولا يفقه ما يجري، هذا ما ظنَّته.

كان الطفل يشاهد دموع والده تنسكب بصمت آنذاك، أما هو فيتظاهر بالنوم، وفي أحد الأيام خُيِّلَ إليه أن أباه صرخ، اقترب منه، كان جسده جامدًا وباردًا، لم تأبه أمه بما يجري، كانت تتلوى تحت الغطاء الخفيف بين يدي ذلك الرجل، ولما انتهيا، دثَّرا وجه أبيه، انتظرت أمه خروج الرجل، ثم صرخت نائحةً معلنة موت زوجها الغالي.

هرب جمال من الغرفة بعد موت أبيه وسلك دروب الشر، أعانه الناس على التوغُّل في هذا الطريق بطريقةٍ غير مباشرة؛ كانوا يسخرون منه ويعيِّرونه بسيرة أمه ويضربونه بلا رحمة. راح ينتقم منهم، يسرق، يخرِّب، ثم حين بلغ المراهقة، عثر على سلاح أشد فتكًا، كان يفعل فعلته ثم يختبئ في البساتين حتى تبرد نيران الأهل، وفي أسوأ الأحوال لا يزيد العقاب الذي يناله عن بضع ضربات، يتظاهر بأنه فقد وعيه، فيدعونه وشأنه.

ها هو يرحل، يرحل مضرَّجًا بدمه، هل كان مجرمًا أم ضحيَّة؟ غير مهم، لا أحد يكترث، سيدفنونه بعد العصر، ثم يصير نسيًا منسيًّا...

لقد عانى العم سلطان من هذا الفعل البشع، أقسم على أن يردع جمال ويوقفه عند حدِّه، لن يسمح له بتِمزيق المزيد من الأطفال، كان بذلك ينتقم لنفسه قبل الآخرين، استطاع الإمساك به بعد كمينٍ مُحكَمٍ نصبه له في البستان، كان يعلم جيدًا أن الذئب لا بُدَّ أن يرجع إلى وكره مهما طال غيابه، انزوى في عتمة المغارة التي يتَّخذها جمال ملاذًا، وكلما خبت ثائرته، ألهبها بشرب المزيد من الكحول واستعادة الماضي، أقنع نفسه أن الذي سيأتي ليس جمال، بل عمَّه اللعين، عمَّه الذي سلبه طفولته وحياته وتركه مريضًا يقاسي أوجاع النفس وتبكيت الضمير، انقضَّ عليه فور دخوله، عالجه بضربةٍ قويَّةٍ من عصا غليظة، أوثقه بعد ذلك وجرَّه إلى غرفة أحمد، أمره أن ينظر إلى وجه ضحيَّته، والتي ستكون الأخيرة. أقسم جمال بأن يتوب، لم يشفع له ذلك، كان أحمد محمومًا جدًّا، فاضطرَّ العم سلطان إلى المكوث والاعتناء به، جرح جمال في ربلتيه جرحين عميقين كي لا يهرب، زحف محاولًا فعجز. وقبيل أذان الفجر، جرَّه إلى البستان وطعنه في قلبه ومعدته وحلقه، لم يتركه حتى تأكد من أنه مات... مات إلى الأبد.

٣٤

تمكَّن مجدي من تزويده بشيء يشبه الحذاء، لكنه أطول وموصول بقطعة عريضة من مطاط، ارتداه فالتصق بقدمه، لم يسقط. طلب منه مجدي تجريبه، أعانه على النهوض. كان خائفًا، ولكن ساوره الأمل بالقدرة على المشي والركض، وربما العودة لممارسة كرة القدم لاحقًا، غير أنه وفور ارتكازه على القدم اليسرى، أدرك استحالة الأمر، وقع أرضًا...

- عليك الاستعانة بالعكَّاز حتى تعتاده.

اعتراه الخجل لعجزه، لم يُتح له مجدي الكثير من الوقت، أمسك بيده وأنهضه، ناوله العكَّاز...

- الآن، هيَّا حاول.

كان جسده ثقيلًا، هو الذي كان يعدو مثل فهد في البريَّة، صار لا يقوى على السير باتِّزان بضع خطوات، كتم حزنه ومشى، كان يشعر بالألم حينما يرتكز على قدمه اليسرى، يكاد ثِقَل الحذاء يُسقِطه مجدَّدًا، تمكَّن في النهاية من ذرع الغرفة مرتين وسط فرح مجدي وتشجيعه.

- قليل من التمارين وترجع مارادونا.

بوغِتَ لمَّا سمع كنيته، وكأنها غريبة عنه، اجتاحه ألمٌ مُمِضٌّ، اغرورقت عيناه، جلس فوق الفراش، مدَّ يده نحو الحذاء وخلعه...

- اسمعني يا أحمد، للربِّ حكمةٌ لا نستطيع إدراك الدرس منها إلا في وقتٍ لاحق، إنني متأكدٌ من ذلك. تقول أمي إن الربَّ أرحم بالإنسان من والديه، وليس من المعقول أن يؤذينا الربُّ لمجرَّد الأذى، لا بُدَّ من وجود حكمة وراء ذلك.

لولا الحزن الذي أصابه لكان ضحك، آخر ما كان يتوقعه أن يكون مجدي مؤمنًا، صحيحٌ إن المسلمين والمسيحيين يعيشون معًا في القرية، ويبدون متقبِّلين بعضهما بعضًا، فإن الصدور تُخفي غير ذلك؛ المسيحيون في نظر المسلمين كفرة، والمسلمون في نظر المسيحيين كفرةٌ أيضًا، فكيف لكافرٍ أن يتحدَّث عن رحمة الله؟!

- تقول أمي إن حياة الإنسان قد تتبدَّل في لحظة، وربما يظن أن حياته صارت أسوأ، ولكن حين يدقِّق فيها، سيجدها غير ذلك. عليه في البداية أن يحبَّ حياته الجديدة وبعدها سيعثر على الخير. الله محبَّة، وبالمحبَّة ستغدو كل الأمور خيرًا.

لامست كلمات مجدي شغاف قلبه، قاده حديثه عن أمه إلى تذكُّر الجدة، هي الأخرى كانت تحكي له عن رحمة الله، أخبرته مرة أن الرسول محمد ﷺ قال: «عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلا للمُؤْمنِ، إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ».

أفرج عن تنهيدة عميقة، ارتدى الحذاء، أمسك بعكَّاز الجدة، تخيَّلها واقفة عند الباب تشجِّعه وتحثُّه على المشي، نهض، لم يبالِ بالألم. استغلَّ مجدي نوبة الحماسة التي غشيته...

- ما رأيك أن نخرج من الغرفة؟

٣٥

خرجا من الغرفة، كانت الشمس في كبد السماء، الطرقات خالية، سأله مجدي إن كان يرغب في الذهاب إلى مكانٍ ما، لم يتردد، أجاب بأنه يريد زيارة البستان ليطمئن عليه. لم يكن خبر بيع البستان قد ذيعَ في القرية، لذا لم يعلم مجدي بأن أباه باعه، وكان يظن أن البستان آل إليه بعد رحيل الجدة، لبَّى مجدي طلبه بحبور.

كان ينظر إلى الشارع الذي بدا وكأنه ازداد طولًا، كان يقطعه في اليوم عشرات المرات بسرعة، أما الآن فسيغدو الأمر بمثابة إنجازٍ كبير. كان العم رضا يسقي بستانه من أرض النبع، حدق إليه قليلًا، ثم ضرب كفًّا بكف مواصلًا عمله، تمنى لو أن العم رضا جاء وهنَّأه بالسلامة، انفتق في قلبه جرحٌ جديد...

نال منه التعب بعد أن قطعا مسافةً قصيرة، وقف...

- هل تريد أن نرتاح قليلًا؟

أومأ بخجل أن نعم. أعانه مجدي على الجلوس فوق حجر على طرف الطريق، تذكَّر النقود، كان من الأفضل لو أنه جلبها ليُخبِّئَها في البستان كما خطَّط، لقد أنساه حماس مجدي للخروج إياها...

- بماذا تفكر؟

- لو أنني جلبتُ النقود، قررتُ إخفاءها في البستان، فهو آمن أكثر من الغرفة.

- لا بأس سنعود في الغد وننفِّذ خطَّتك.

عاد وفكَّر في البستان، تساءل في نفسه كيف سيقوى على الاعتناء به وهو بهذه الحال؟ إن هذا شبه مستحيل، العمل في الأرض يحتاج جسدًا قويًّا يمكِّنه من حفر الأرض وعزق الأعشاب الضارة منها وزرعها وريِّ الأشجار وتسلُّقها لقطف الثمار، هل سيضاف البستان لقائمة الخسائر التي مُنِيَ بها؟

عاود مجدي سؤاله - بعد أن رأى شروده - عمَّا يشغله غير النقود...

- البستان، لن أستطيع الاعتناء به.

- تستطيع تأجيره لأحدهم ليُعنى به حتى تستعيد عافيتك.

كانت الجدة ترفض هذه الفكرة جُملة وتفصيلًا حين يطرحها أحدهم عليها، تردُّ بأن الأرض التي لا تشرب من عرق صاحبها تبور، ولكن لا بأس، فأن يشرب البستان من عرق الإنسان خيرٌ من أن يقتله العطش، سيجتهد في استعادة عافيته سريعًا، لم يبق في الحياة شيء يدفعه للاستمرار سوى البستان.

اكفهرَّ وجه مجدي فجأة، رأى عمَّه فوزي يصعد من بيته القابع في أرضه، أسفل القرية...

- أحمد، انتظرني قليلًا، سأعود بسرعة.

أراد التواري عن أنظار عمِّه، لكنه فشل، كان قد رآه بالفعل، سمع صوته الأبحَّ وهو يهمُّ بالقفز عن السلسلة الحجريَّة...

- مجدي.

تسمَّر في مكانه قليلًا، ثم هرع إليه. استغرب أحمد، ابتعد مجدي، ظل وحيدًا، أصغى لصوت زقزقة العصافير، اشتمَّ رائحة الأشجار والأعشاب، انتعش قلبه قليلًا، تناهى إلى سمعه صراخ عمِّ مجدي...

- لماذا ترافق هذا المسلم؟ كم مرة نبهتك ألَّا تقترب منهم؟ ويا ليتك انتقيت مسلمًا يملأ العين، لم تجد إلا هذا! إن رأيتك معه مرةً أخرى سأضربك، هيَّا، امضِ إلى البيت، بسرعة.

ركض مجدي ودموعه تتساقط خلفه، نظر إلى أحمد نظرةً ملؤها الحزن والاعتذار، نظرة لم يكد يراها، فقد كانت عيناه هو الآخر، فائضتين...

٣٦

نهض بعد أن جفّت دموعه، ازداد انكساره، تمنى ألَّا يطيع مجدي كلام عمِّه ويتخلى عنه، إن الوحدة مُوحشة مثل جبال القرية، وحين يجيء الليل ستنطلق الحيوانات المفترسة لتنهشه، وهو عاجز لا يقوى على الدفاع عن نفسه، ولن يجد من يدافع عنه. تردَّد، أين يذهب؟ أيعود إلى الغرفة ويسجن نفسه فيها، أم يكمل نحو البستان؟ فضَّل الخيار الثاني، سيُسرِّي عن قلبه، سينظر إلى السماء والأشجار والوادي، سيغسل وجهه بماء النبع ويشرب، سيشرب كثيرًا لئلَّا يعطش في المستقبل.

تعكَّز على العصا التي صنعها للجدة، لو كان يعلم أنه سيرثها لكان جعلها أطول قليلًا، بدأ الطريق الوعر ينحدر، بات المشي أكثر صعوبة وأشدَّ خطورة، وقف قليلًا ليقدِّر إن كان سيقوى على الإكمال أم لا. وبينما هو شارد، عبر بجانبه الجد محمود الفالح. نكَّس رأسه لما فَطِنَ لوجوده، أدرك أن أقرباءه لم يزوروه لأنهم غاضبون منه، لقد شوَّه سمعتهم، وحطَّ من قدرهم بين العشائر الأخرى. كان الجد محمود يكبو فوق حماره وكأنه غافٍ، لم يره. الجد محمود لا يمشي كثيرًا، إنه عجوز ومع ذلك يتنقَّل بواسطة حماره كيفما شاء.

أضمر نيَّة شراء حمار، إنه يملك الكثير من المال، قال مجدي إن العم سلطان، على الأغلب، هو الذي ترك النقود، فقد كانت أمه قد حكت أن العم سلطان من عائلةٍ ميسورة، وقد كان يشتري منهم الكثير من النبيذ ويدفع ثمنه دونما تأخير. عرفتْ ذلك من رجل يسكن قرية العم سلطان، كان جاء ليبتاع النبيذ، فالتقى بالعم سلطان الذي ارتبك حينما رآه وادَّعى أنه لا يعرفه، سألته أمي عن العم سلطان، بعد أن رحل مسرعًا، فأخبرها الكثير. سينتقي حمارًا جيدًا، لو يوافق العم مصطفى لاشترى أحد حميره القوية، سيحصل على الحمار وربما فرصة لرؤية جميلة.

لو ظلَّت جميلة صغيرة! لقد كبرت سريعًا، وكبرها حرمه فرصة اللعب معها، كم يشتاق لتلك الأوقات، داس حجرًا أعاده للواقع، أمسك بجذع شجرة تين حماه من السقوط. تابع المشي بحذر هذه المرة. طالعه مدخل البستان، المدخل الذي كان العم حمدان يركن سيارته عنده، رأى نفسه يحمل ثلاثة صناديق من الخوخ ويجري، يناولها لعليٍّ ثم يرجع ليجلب ثلاثة صناديق أخرى، تُرى لو أراد الآن فعل ذلك، كم سيستغرق من الوقت؟ ربما إن العم حمدان لن ينتظره حتى يكمل، لن يجد من يشتري الثمار، ستذبل وتسقط عن الأشجار، إن فكرة إكراء الأرض لأحدهم فكرة سديدة.

حاذى بستان العم مصطفى، لا أحد فيه، اعتراه بعض الخوف، لقد ذبحه جمال والبساتين عامرة، تذكَّر أن جمال قد مات، لو أنه مات قبل أن...

زفر تنهيدة عميقة تقطر حزنًا، وقع نظره على البقعة التي كان يلعب فيها مع جميلة، تخيَّلها هناك، وحدها، ها هي تحاول أخذ الكرة منه، إنه ماهر جدًّا، تُمسِك بكنزته وتنزع الكرة بالقوة، يرتعش جسده حين تمسُّه يدها، يمسكها ثم...

أستغفر الله، أستغفر الله... لهج بالاستغفار، غلبه الشيطان وهيَّأ له أشياءً سيئة. ولج البستان، ثمة تغيير حلَّ به، بحث عنه، لم يجد شيئًا ظاهرًا، إلا أنه متيقِّنٌ من ذلك... انتابه شعور غريب، ظن أنه أخطأ ودخل أرضًا أخرى.

جاوز شجرة التين التي... أشاح غاضبًا عنها، اقتعد فيء شجرة المشمش الكبيرة، أجال بصره في أرجاء البستان، اطمأن أن الأشجار بخير، أركى رأسه إلى ساق الشجرة. ارتاح، هنا لن يراه أحد، لن يسخروا منه، هنا لا شيء سوى الأشجار والعصافير، إنها طيِّبةٌ جدًّا، ستبقى على حالها، لن تتبدَّل، ستنظر إليه كما كانت تفعل دائمًا.

نهض وسار نحو المخبأ الذي دفن فيه النقود التي جناها من بيع الثمار، أخرجها، خمسة دنانير ونصف، اطمأن بأنها لا تزال في مكانها، عزَّز ذلك من خطَّته لإخفاء النقود هنا، أعاد دفنها. تجرَّع ريقه فوجده جافًّا، وكأن النبع يدعوه لزيارته، يقول: يا لك من جاحد، كيف نسيتني؟ استعان بأغصان الأشجار ومشى، هبط نحو النبع، لا بأس إن سقط هنا، سمع أصواتًا قريبة، اعتقد أن العم مصطفى وعائلته جاءوا، أصاخ السمع طامعًا في سماع صوت جميلة، كان الصوت قريبًا، وكأنه آتٍ من البستان. انعطف نحوه، ففوجئ بالعم مدين وعائلته، اضطربوا لما رأوه، غطَّت زوجته شعرها، سأله العم مدين بصوتٍ غاضب عمَّا يريد، استغرب سؤاله، استجمع شجاعته بصعوبة بالغة، ردَّ بسؤال عمَّا يفعله هو وعائلته هنا...

- أنا في أرضي.

أجاب العم مدين بجواب حاسم واثق، يملك العم مدين الكثير من الأراضي، لكن لا بساتين له هنا، ربما إنه اشترى بستان العم مصطفى، إنه يحب الأراضي كثيرًا ويشتري ممَّن يريد أن يبيع...

- بستان العم مصطفى ليس هنا.

- وما علاقة مصطفى، لقد اشتريت البستان من أبيك.

- ولكن البستان ليس لأبي، إنه للجدة.

- لقد ورثه أبوك عنها بعد موتها وعرضه عليَّ، ليس هو فقط، لقد باعني كل شيء قبل أن يرحل.

باع كل شيء ورحل، هكذا بسهولة...

- والآن، اخرج من أرضي، أريد أن آخذ راحتي أنا وعائلتي.

رفض الخروج، طلب من العم مدين الرحيل عن البستان، استشاط العم مدين غضبًا، نادى على أبنائه الثلاثة الذين ذهبوا ليجلبوا الماء كي يسقوا بستانهم الجديد، أمرهم بطرده من البستان، حملوه وهم يضحكون، وألقوه بكلِّ قوة عند المدخل.

٣٧

تعرَّضت نفسه للتمزيق، شعر بأنه خرقةٌ بالية لا فائدة تُرجى منها، نُظِّفت بها الأوساخ، ثم أُلقيَت في القمامة. انتهى، جرَّ جسده المنهك، لم يكتفوا برميه، بل أبرحوه ضربًا، ركلوه بأقدامهم. كانوا يضحكون وهم يفعلون، وكأنهم يمارسون شيئًا يحبونه. لم يعد يحسُّ بالألم بعد عدد من الركلات القوية. فتق صوت ضحكهم ذاكرته، كان يضحك بالطريقة نفسها وهو يلعب كرة القدم، ها هو ينطلق بالكرة مثل سهم، يراوغ اللاعبين، يهتف الحاضرون: مارادونا، مارادونا، يسدد الكرة، يحرز هدفًا جديدًا. استيقظ من الأحلام والكوابيس، كانت قدمه عارية مثل عورةٍ غير مستورة، نزعوا الحذاء عنها وهم يقهقهون، صفعوه عليها، كان يبكي في البداية، ثم صار يضحك! لا بُدَّ أنهم يفعلون ما يُضحِك، يجب أن أضحك معهم وإلا خالوني عدوَّهم، ها أنا أضحك معكم عليَّ، أنا في صفِّكم ضد... ضد نفسي. داسوه بأقدامهم، وضع سالم قدمه على مؤخرته وضغط بقوة، «أراهنكم بأن قدمي ستدخل» قال ذلك وضغط أكثر. أرخى جسده، سلَّمهم إياه ليفعلوا به ما يريدون، لينتهوا ويرحلوا. رحلوا، رحلوا بعد أن أعياهم التعب والضحك، رحلوا، رحلوا وخلَّفوه جيفة، جيفة طعنتها الحياة وأخفتها عن الأعين. إنه هنا على الطرف، في ذلك المكان الذي لا يُرى فيه الإنسان، المكان حيث الإنسان يساوي ضحكة...

زحف نحو الغرفة، لن يخرج منها أبدًا، سيسجن نفسه فيها للأبد، ربما يموت بسرعة ويرتاحون منه، تُرى بماذا آذاهم ليفعلوا كل هذا؟ لعلَّها رائحة الجيفة التي تفوح منه. حتى الدفن استخسروه فيه، لا أحد يطيق دفن الجيف، إنها تُترَك حتى تتحلل وحدها، وحتى يجيء ذلك الموعد، سيظلون يركلونه ليبتعد عن أنظارهم، أو ربما يرحمه حيوانٌ مفترس، ذئب آخر جائع، ينهشه، يأكله. انتهى، حتى الوحوش صارت تتأفف منه، حتى الوحوش.

أحقًّا إن الطرقات خالية أم أنه لا يرى ولا يُرَى؟ قرابة الألفي شخص - تعداد سكان القرية - ولم يقدِّم له يد العون سوى أربعة، ياه... ما أندر الأخيار فيكِ أيتها الحياة!

دخل الغرفة، وكأنه قضى عمره يزحف نحوها، استخفه الفرح حين بلغها، الفرح! بعد كل الذي حصل لا يزال قادرًا على الشعور بالفرح. تمدَّد فوق فراش الجدة، وضع رأسه في حجرها، ومات، هذا ما تمنَّاه. لم يمت، غير أنه الآن، والآن فقط، تمكَّن من البكاء، حتى البكاء صار بالنسبة له إنجازًا... حتى البكاء!

تسلَّل مجدي إلى الغرفة، دفع الباب ودخل بعد أن قرعه كثيرًا ولم يسمع سوى أنَّات متقطِّعة، شهق حين رآه مغطى بالدماء، ناداه فلم يجب، ظنَّه مات، خرج مرعوبًا. جلب أمه وعاد. كانت أمه تعمل قابلة تولِّد نساء القرية قبل بناء المستوصف. أسعفته، مسحت الدماء وأوقفت جريانها. بحثتْ عن بصلٍ في الغرفة، كانت خاوية، ذهب مجدي وجاء بواحدة، مرَّرتها تحت أنفه، صحا. كان مجدي وأمه يبكيان، سألاه عمَّن ضربه، صمت، وما الفائدة إن قال، إنه وحيد لا ظهر يسنده، تخلَّت عنه عشيرته ولن ينصروه حتى لو شاهدوه يموت. كانا ينظران إلى وجهه ويتحسَّران، كان وجهًا نُزِعَت منه الحياة، وجهًا كوجه الأموات، أو من هم على وشك الرحيل... إن حدث ذلك، فسيكون موته أكبر إنجازٍ يحققه في حياته!

٣٨

اعتنت به الخالة فريدة حتى تحسَّنت حالته، لم تكن وجبات الطعام والإسعافات التي قدمتها وحدها التي ساهمت في ذلك، كان أكثر ما ساعده على الشفاء، وجود امرأة بقربه. أدرك أن خسارته الكبرى كانت في فقدان الجدة، لو ظلَّت على قيد الحياة، لما كان حصل جُلَّ هذا. أيقن أن الرجل دون امرأة لا يكون رجلًا...

اعتذر له مجدي عمَّا بدر من عمِّه فوزي...

- إنه مجنون، حتى نحن لا نسْلَم من لسانه.

قالت الخالة فريدة مواسية، ثم أردفت:

- كان الربُّ في عون زوجته.

ضحكت. أحسَّ أن جدران الغرفة استجابت لضحكة الخالة فريدة، حتى الشمس دخلت الغرفة لترى ضحكتها...

- هنيئًا لكم أنتم المسلمون، تستطيعون الطلاق والزواج متى شئتم، أما نحن فيبقى أحدنا مقيَّدًا بزوجه حتى يموت.

شعر أن أنسجة قلبه بدأت تترمَّم، كان كلام الخالة فريدة بلسمًا لا يُباع أو يُشتَرى، ولا يوجد إلا في القلوب النقيَّة، هو الذي طالما كان خائفًا من الاختلاط بهم، حتى إنه كان يرفض الأكل من طعامهم، لامَ نفسه على ذلك، كم كان جاهلًا...

- أتعرف يا خالتي يا أحمد، سمعت مرَّة بابا يقول إنه حتى بعد ما نموت ويذهب الطيبون منَّا إلى الجنة، يتلاقى الرجل وزوجته هناك، أستغفر الله، حتى بعد ما نموت، يعني ربما أكون راغبة في تغيير أبو وسام، أهو مكتوب عليَّ دنيا وآخرة.

غشيه الفرح، ضحك. نظر إلى وجه الخالة فريدة، كانت الوحيدة التي استطاع النظر في عينيها منذ اقترافه الخطيئة، كان يبغي التأكُّد إن كانت من تحدِّثه هي فعلًا الخالة فريدة، فلوهلة خُيِّلَ إليه أنها الجدة، اختلط عليه الأمر، كانتا متشابهتين تمامًا، الوجه ذاته، العينان ذاتهما، والابتسامة ذاتها...

- ابني يا مجدي، لا تخبر أباك، أنت تعرف أنه مجنون، الله وكيلك عائلته كلها مجنونة.

ارتفع صوت الضحك في الغرفة، تقهقر الحزن وانزوى بعيدًا، لقد هزمته الخالة فريدة، لا أحد يستطيع هزيمة الحزن مثل امرأة قوية...

ولما تأكدت الخالة فريدة من أنه بات قادرًا على البوح، سألته مجدَّدًا عمَّا حدث، وعمَّن فعل به ذلك. تذكَّر، شعر بوخزٍ في قلبه، كان بحاجةٍ للبوح، لرؤية الشفقة والمواساة في أعينٍ بشريَّة، لسماع كلماتٍ ترتق بعض الجراح التي استوطنته...

قصَّ عليهما ما جرى، هوَّنت عليه الخالة فريدة، أخبرته أن بإمكانه الذهاب إلى بستانهم مع مجدي وقتما يشاء. نصحته بالالتفات إلى دراسته، فإن كان ثمَّة شيء قادرًا على نجدته، فلن يكون سوى العلم.

توطَّدت علاقته بمجدي والخالة فريدة كثيرًا، داوما على زيارته بشكلٍ شبه يوميّ، صار ينتظرهما بفارغ الصبر، لم يخرج من الغرفة منذ ضربه أبناء مدين الأشرار أبناء الشرير، غير أن الإجازة الصيفية انتهت، وآن أوان العودة إلى المدرسة، كان يودُّ ألّا يذهب، بيد أن الخالة فريدة أجبرته على ذلك.

٣٩

طرق مجدي بابه في الصباح الباكر، نهض على مضض، خاف أن تأتي الخالة فريدة وتسلقه بلسانها الحاد، وخشي ألَّا تفعل، إن زجرها وسُبابها باتا من أحبِّ الأشياء إلى نفسه. ذهب كي لا تغضب منه، سيفعل كل ما تأمره به، سيكون ولدها المطيع، لن يطيق رحيلها هي الأخرى، كانت ترعبه هذه الفكرة؛ كل الذين يحبهم رحلوا، الجدة، الأستاذ هيثم، العم سلطان، هل سيأتي الدور على مجدي والخالة فريدة؟

كان الوقت لا يزال باكرًا جدًّا، لم يخرج الطلبة بعد، كانت شوارع القرية شبه خالية، مجرَّد أطياف تلوح فيها، أغلبها جنود سيلتحقون بكتائبهم، عبرا بجانب المطعم الجديد الذي افتُتِح في القرية، بدأ أهلها يجلبون فطورهم منه، كانوا يأكلون ممَّا يزرعون ومن منتجات الماشية، لكن الحياة بدأت تتغيَّر بوتيرة سريعة، حتى إن العم مخلص ابتاع (ستالايت) يبثُّ العديد من البرامج، نصحه العم مصطفى بألَّا يفعل؛ لأنه يُدخل الكثير من الشياطين إلى بيته بدل شيطان أو اثنين، كان الناس يشاهدون فقط القناة المحليَّة الأولى والثانية. كما أن فرحان، ابن العم رضا، اشترى هاتفًا صغيرًا يحمله معه أينما ذهب. لم يصدق أحمد كلام مجدي بادئ ذي بدء، لكنه حينما رأى الستالايت فوق السطح، صدَّق. كان العم شعبان يتهيَّأ لاستقبال زبائن المطعم الآخذين في الازدياد، سلَّم عليهما وابتسامته العريضة تشعُّ مثل أول خيوط النور، دعاهما لتناول الساندويش، شكراه، وتابعا طريقهما.

- هل تريد أن نرتاح قليلًا؟

سأله مجدي، كان ينتظر هذا السؤال منذ زمن، خجل من طلب ذلك، كل الأشياء صارت محرِجة، سواء كانت كبيرة أم صغيرة.

جلسا فوق الدوَّار الذي يتوسَّط القرية...

- كيف حال قدمك؟

- بخير.

- هل تؤلمك؟

- لا.

- لماذا لا تذهب لتركِّب قدمًا صناعيَّة؟

- لا أعرف.

- أخي وسام يذهب إلى العاصمة كل أسبوع، فهو يعمل هناك، سأسأله ونرى.

- إن شاء الله.

- هل تعلم أنني سأذهب إلى العاصمة بعد نهاية التوجيهي، سأدرس في الجامعة هناك، وأنت ماذا ستفعل؟

- لا أعرف.

- ربما تلحق بي إلى هناك، العاصمة مدينة كبيرة ليست مثل قريتنا، وهناك لا أحد يهتمُّ بأحد، حتى الجيران لا يعرف بعضهم عن بعض شيئًا، كل واحد فيه ما يشغله، لا وقت للتدخل في شئون الآخرين. أنت تملك مبلغًا لا بأس فيه، عليك فقط أن تجتاز التوجيهي وبعدها ستغدو الأمور أيسر.

- إن شاء الله.

كان أحمد - فيما مضى صموتًا - وبعد ارتكاب الخطيئة أصيب بالبكم إلا قليلًا، تبدَّلت نظرته للأشياء كلِّها، حتى نفسه، اختلفت نظرته لذاته، يخال وجهه بشعًا لا يطيق أحد النظر إليه، ولجسده رائحةٌ كريهة تنفِّر

الآخرين منه، وإن حاول مجدي الاقتراب منه قليلًا، دبَّ فيه الرعب، لم يعد يأمن أحدًا على نفسه، حتى مجدي.

تنفَّس الصبح حاملًا معه رائحة الأشجارِ والأعشاب، كانت الأعشاب على جوانب الطرقات معطَّرةً بالندى، العصافير تجوب أرجاء القرية بحثًا عن رزقها، سمعا صوت بابٍ معدنيٍّ يُطوى، التفتا، كان العم موسى قد شرع باب دكَّانه، ثم سمعا صوت بابٍ آخر، كان العم خضر قد فتح هو الآخر دكَّانه...

- الغيرة.

قال مجدي باسمًا، أومأ أحمد موافقًا ثم أكملا طريقهما نحو المدرسة. جاوزا مدرسة أحمد القديمة، نظر إليها بشوق، طاف بعينيه على الملعب، رأى نفسه يجري بسرعة وراء الكرة، المُعلِّمون ينظرون إليه بدهشة، زملاؤه يشتمُّونه بحب، العرق يرشح من جسده، والنشوة تملأ قلبه. رنا الطفل إليه، ودَّعه وطلب منه أن يكمل وحده، خلَّفه وراءه وسار بلا طفولته إلى المسرح الجديد.

هل تعلم كم هو مؤلم حينما تتحول الحياة إلى مسرح وأنت تؤدي دور الممثل الهزليِّ فوقه؟! ممثل يَضحك كل من يراه دون أن يقول أو يفعل شيئًا، بمجرَّد ظهوره تضجُّ المدرَّجات بقهقهاتَ الجماهير المحتشدة. كان يرمق الطلاب الذين بدأوا يتوافدون إلى المدرسة من طرف خفيٍّ، يرى ضحكاتهم الساخرة ووشوشاتهم وإشاراتهم نحوه فيُحنِي ظهره أكثر، يُحنِي ظهره علَّها تتخطَّاه وتصيب غيره، غير أنها كانت مُسدَّدة نحوه باحتراف، تخترق قلبه، تفجِّره، تنثره أشلاءً.

كان منساقًا تمامًا لمجدي، يمشي حيث مشى، كان يلوذ به، يخشى أن يتركه ويرحل. كان يودُّ أن يطلب منه الذهاب إلى مكانٍ منزوٍ لا يراه فيه أحد، خُيِّلَ إليه أن مجدي يتعمَّد بقاءهما وسط الحشد، ما همُّه؟ إنه لا يُجلَد بسياط النظراتٍ ولا يمزَّق بأنصال الضحكات.

إكتمل وصول الطلَّاب تقريبًا، كان أصدقاؤه القدامى يتحاشون الاقتراب منه، وكأنه عارٌ مُعْدٍ، إن مسَّه أحدهم، صار شريكه في الفضيحة.

جاء دور الطلَّاب الأشرار، يجب أن يؤدُّوا أدوارهم أيضًا، أخذوا يقتربون منه ويصيحون بأعلى أصواتهم، وكأنهم ينادون شخصًا فوق الجبل المقابل:

- جمال، جمال.

٤٠

تولى زمام المبادرة، قرر العودة إلى الغرفة، ضاعفت ضحكات المُعلّمين من حزنه. المُعلِّمون الذين يجدر بهم الدفاع عنه، شاركوا في جلده. هرب، عجز مجدي عن ثنيه، يأس منه، تركه ويمَّم نحو غرفة الصف...

همست له نفسه أن يقفز عن قمة الجبل ويرتاح، استجاب لها، راح يصعده، نسي أن قدمه مبتورة، كان يمشي بسرعة، غطى ألم النفس على ألم الجسد، كان يضغط عليها بقوة، ستنتهي هذه المهزلة المسمَّاة: حياته، ستنتهي إلى الأبد.

بلغ قمَّة الجبل إلا قليلًا، كان جسده يتصبَّب عرقًا، صدره يعلو ويهبط بسرعة، قلبه يخفق بشدَّة، والدموع والمخاط يسيلان على وجهه. كانت بيوت القرية كلُّها أمام ناظريه، تمنى لو أنه يملك مدفعًا، لكان دكَّها بيتًا بيتًا، باستثناء بيت الخالة فريدة. تراءى له وجهها وابتسامتها وكلامها اللذيذ، ابتسم، وكأنه مصابٌ بالشيزوفرينيا، وكأن أكثر من إنسانٍ يعيش في داخله، في خضم كلِّ هذا، كان ثمَّة إنسان يحدوه الأمل، برغم كلِّ هذا يحدوه الأمل، بغدٍ أفضل.

هبط عن الجبل، عاد وعيه حاملًا وجع قدمه إلى رأسه، وكأن مسامير حادَّة غُرِسَت فيها، جلس بعد أن أعياه التعب والوجع، اقتعد ظلَّ شجرة بلوط، كانت العصافير تروح وتغدو فرحة، بدأت صغارها تطير، تمنى لو أنه وُلِدَ طيرًا، طيرًا بجناحين قويَّين يحملانه حيث يشاء...

وبينما هو غارقٌ في أفكاره، وإذا بحمارٍ يعبر من أمامه، قفزت الفكرة التي أضمرها في وقتٍ سابق إلى وعيه، نهض وأمسك برقبته، تلفَّت يُمنة ويسرة، خشي أن يكون للحمار صاحب، الحمير ليست رخيصة، وقد اندلعت العديد من المشاجرات بسبب حمار!

كان الحمار غير مسروج، ربما تخلَّى عنه صاحبه لأمرٍ ما، أو لعلَّه يكون سائبًا. بحث عن حبلٍ يطوّق به عنقه، عثر على قطعة من ثيابٍ، مزَّقها، ثم لفَّها حول عنقه، جذبه نحو صخرة، استعان بها وركبه. دعا بألَّا يكون للحمار مالك، فبذلك تكون مشكلة التنقُّل قد حُلَّت.

كان الحمار صعب المراس، لا يسير بسهولة، كاد يُسقِطه أكثر من مرة، ظل يلاطفه حينًا ويقسو آخر، كان يشعر بالمتعة حين يضربه، أخيرًا وجد من يفرغ فيه غضبه، ولما يتذكر مرارة القسوة التي عاناها من الآخرين يتوقف.

دخل القرية ممتطيًا الحمار، استُقبِل بنظرات الاستغراب والسخرية، طأطأ رأسه لئلَّا يرى أحدًا، كان مشبعًا من الاستهزاء.

- من أين لك بهذا الحمار يا ولد؟

أخرجه صوتٌ أجشٌّ من شروده. كان العم مصطفى حاملًا أرغفة الخبز بين يديه، توقفت زوجته عن صنعه في الآونة الأخيرة، صار شراؤه من المخبز أسهل وأقلَّ كلفة...

- وجدته.

صمت أحمد طويلًا، كان يتجرَّع ريقه، وكأن ما سيخرج من فمه ليس كلامًا، بل خناجر، اعتراه خجلٌ شديد، وفي النهاية نطق، قال كلمةً واحدة بمشقَّة...

- وجدته.

كان صوته خافتًا خائفًا منكسرًا...

- وجدته أم سرقته؟

زادت خفقات قلبه وتضخَّم صوتها، كانت تقرع مثل طبل بين جبلين، رام الدفاع عن نفسه، غير أنه فقد السيطرة على جسده، وكأن كل شيء استقلَّ بذاته، كلٌ يعمل حسب هواه: خرج العرق من تحت جلده، اختلَّ توزيع القلب للدماء، الرئتان تبتلعان الأكسجين ولا تزفرانه، المعدة تدور وتتشقلب، لسانه يلوذ بفمه يأبى الخروج، فكَّاه يُطبقان بعضهما على بعض، خذله جسده، لم يجد بجانبه سوى الصمت، ولكن الصمت يصير خطيئة كبرى أحيانًا...

خُيِّلَ للعم مصطفى أن ظنَّه صدق، لا فائدة تُرجى من هذا الفتى، لقد وُلِدَ شريرًا، لم يشأ الله أن يهديه لسوء حظه، سيبقى كذلك حتى آخر عمره. إنه لا يستحق حتى الشفقة، يستأهل كل ما جرى له وأكثر، الله لا يرمي الحجارة، سبحانه، هو الحكيم. حدَّث العم مصطفى نفسه بذلك، ثم أعطاه ظهره وغادر.

أكمل طريقه نحو مأواه. يجب أن يعتاد على الإهانة، يبدو أن لا سبيل للفكاك منها، الحلُّ هو المكوث في الغرفة. ربما من الأفضل ترك الحمار يذهب في حال سبيله قبل أن تتفاقم المشكلة، وقف أمام الغرفة، احتار، هل يُطلقه، أم يبقيه؟ قرَّر الإبقاء عليه، وفي حال ظهر مالكه، سيتعرَّض للمزيد من المهانة، وهل يُشكل ذلك فرقًا؟!

أوثقه إلى وتدٍ بجانب باب الغرفة، دخلها وأقفل باباها، لم يكن يرغب في أن يطرقه أحد، باستثناء الخالة فريدة، أو جميلة. هُيِّئَ إليه وكأنه لم يرها منذ دهر، استحضر ملامح وجهها، جسدها الممشوق، ضحكتها الموسيقيَّة، حركات لسانها وهي تغيظه. غمره إحساس لذيذ، شعر بالدم يتدفَّق غزيرًا في أوردته، وعقب دقائق، أدرك أنه كَبُر، اختلجه إحساس بالسعادة، بات رجلًا، بإمكانه الزواج، تُرى هل يوافق العم مصطفى على تزويجه من جميلة؟

وبينما يتأكد من أنه صار رجلًا للمرة ثانية، سمع صوت الخالة فريدة، اختفى الرجل الذي كانَه قبل قليل وعاد طفلًا صغيرًا... دفعت الباب ودخلت...

- ما شاء الله، هل أكملت دوامك يا باشا؟

غرَّد طائر الفرح في قلبه، أخفى بسمته بعناء شديد...

- ومن أين جِئتَ بهذا الحمار؟ هل هو مُعلِّمك الجديد؟

- لكن.

- لكن ماذا؟ تحدَّث.

- صاروا يضحكون عليَّ.

سكتت الخالة فريدة، كانت تبحث عن شيء تبثُّ به الشجاعة في نفسه. هي خير من يعلم معنى سخرية الآخرين وأثرها على النفس. كان أبناؤها يجيئون ودموعهم تهطل غزيرة والحزن يأكل أكبادهم، يحدِّثونها عن كلام الأطفال عنهم بسوء، وكيف ينالون من دينهم وشرفهم، يتَّهمونهم بممارسة الفواحش لأن دينهم يُحلُّ ذلك. كانت تتجرَّع الغُصَّة، ثم تطلب منهم ألَّا يصغوا لكلامهم، إنهم مجرَّد أطفال لا يعلمون شيئًا لا عن دينهم أو دين غيرهم. لكن الأمر هذه المرة مختلف؛ هذا الفتى وحيد، لا أحد يقف بجانبه، الكل ضدَّه، لقد زرعوا الخوف في قلبه الصغير، ولن يتوقفوا عن ريِّه حتى يستحيل وحشًا يفترسه. تخلَّت الخالة فريدة عن شجاعتها، لن تكذب عليه، سيجابه أيامًا عصيبة، ربما من الأفضل أن يختار طريقه بنفسه...

٤٢

حين عاد مجدي وقصَّ عليها ما جرى في المدرسة، بكت الخالة فريدة بمرارة. كانت حزينة ومندهشة، لقد نالوا من عائلتها لأنها على غير دينهم، فلماذا ينالون إذن ممَّن هو على دينهم؟ ربما ليس للأمر علاقة بالدين، إنه مجرَّد البحث عن الاختلاف، ثم السخرية منه. استشارت زوجها فطلب منها التوقُّف عن التدخُّل في شئون الآخرين. أدركت أن لا فائدة تُرجَى منه، خصوصًا بعد أن بلغ من الكِبَر عِتيًّا وصار مثل شقيقتها، كما دأبت تقول لولديها. تركته وذهبت إلى ابنها الأكبر، وسام، فهو يعمل في العاصمة، وربما ما عجزت عنه القرية، تفلح فيه المدينة. كان وسام يقرأ كعادته، تأفَّفت حين رأت الكتاب بين يديه. بلغ الثامنة والثلاثين ولم يعد يستمع لها، يرفض فكرة الزواج رفضًا قاطعًا، أفسدته الكتب التي ينكبُّ عليها ليلًا ونهارًا، مذ التحق بالجامعة ولم يترك الكتاب، وخصوصًا أنه صار شيوعيًّا، لم تفهم معنى هذه الكلمة لمَّا نطقها أمامهم، كان ذلك في سنَتِه الجامعيَّة الثانية، حكى لهم أشياء عجيبة: حريَّة، مساواة، ديمقراطيَّة، ظنَّته محمومًا يهذي... سرقته القراءة من الحياة ومنهم، حتى إنه فصَّل نظَّارةً بعد أن اعتلَّ بصره. ابتسم لها وهي تدلف نحوه، نهض ورحَّب بها، قبَّل يدها...

- الرب يرضى عنك يا وسام، لو أنك تطيعني.

- وبماذا أغضبتك يا حاجَّة؟

- حاجَّة! لو يسمعك عمُّك فوزي لظنَّك ارتددت عن المِلَّة.

- الملل كلُّها واحدة وكلُّها لله، لكن الناس هي التي تبحث عن الاختلاف بدل الاتفاق.

- والله إنك صادق، كل من على دينه الله يعينه. على سيرة الاختلاف، أعرفتَ ماذا حصل مع جارنا أحمد؟

هزَّ وسام رأسه بالإيجاب، كان مجدي قد أخبره، حثَّه وسام على الوقوف إلى جانبه وألَّا يبخل عليه بشيء، قال له إن أفضل ما بوسع الإنسان صنعه في هذه الحياة هو مسح الدمعة ورسم البسمة، رغم أن وسام يعرف حكاية أحمد، فإن الخالة فريدة عادت وروت له سيرة حياته منذ وُلِدَ وحتى هاته اللحظة، ظلَّ يُصغي لها ويُظهر علامات الدهشة ويبتسم، سألته عن رأيه...

- لا بُدَّ أن يتعلَّم يا أمي، الإنسان دون علم مثل البيت دون سقف.

- لكن يا ولدي أنت تعرف، سيستمرون بمعايرته والضحك عليه.

- حسنًا يا أمي، بصفتي شيوعيًّا أولًا، وإكرامًا لك ثانيًا، سأتولى تعليمه.

٤٣

أقنع وسام مدير المدرسة بألَّا يرسب أحمد بسبب الغياب، وبالمقابل سيلتزم بتأدية الاختبارات. لم يكترث المدير للأمر، سيوصي المعلِّمين برفعه حتى التوجيهي، وحينئذٍ سيفشل لا محالة، لا يملك أحد الحق في محاسبته على ذلك، المدير هو الآمر الناهي في أي مؤسسة.

كثيرًا فرح مجدي لمَّا سمع النبأ، وسام لن يكون معلِّمًا فذًّا فقط؛ بل منقذًا سيُخرِج أحمد من الحفرة العميقة التي أُسقِط فيها، قبلَ أحمد العرض، إنه بمسيس الحاجة للأصدقاء، وإنْ كان وسام طيِّبًا مثل مجدي، فلقد فاز إذن فوزًا عظيمًا.

دخل وسام ومجدي الغرفة، كان الحمار لا يزال في مربَطِه، ولولا الحشائش التي تطعمه إياها الخالة فريدة، لكان نفق جوعًا، كان روثه قد غطى فناء الغرفة، امتزجت رائحة العفونة الخارجة من الغرفة برائحة الروث، تظاهرا بأنهما لم يشمَّا شيئًا. اقتعدا فراش الجِدة، ساور أحمد شعور غريب؛ كان خائفًا من وسام، مطمئنًا لمجدي، كان يتحاشى النظر مباشرةً في أعينهما، حتى مجدي لم ينظر في عينيه مسبقًا إلا نادرًا ودون وعي.

أخرج مجدي كتب أحمد، التي ذهب واستلمها بدلًا عنه، من حقيبته، ناولها لوسام الذي ركنها جانبًا وأخذ يتفحَّصها واحدًا واحدًا، كانت أمارات الانزعاج تظهر على وجهه مع كلِّ كتاب يمسكه. هز رأسه حزينًا، ثم خاطب أحمد:

- بماذا تحب أن نبدأ؟

جفل أحمد، وكأنه تلقى صفعة، زادت خفقات قلبه، تعرَّق جسده، اضطربت معدته وأطبق فكَّاه بعضهما على بعض، تمامًا مثلما حصل لما كلَّمه العم مصطفى...

- إنه قليل الكلام.

قال مجدي بنبرة اعتذار...

- ذلك أفضل من أن يكون مثلك، بلسانين.

هربت من أحمد بسمة، كانت بمثابة بداية تدشين علاقة صداقة جديدة، شرع وسام يشرح الدرس تلو الآخر بأسلوب سهل جميل.

- - حسنًا، انتهينا من الدروس التي عليك حفظها كي تنجح في المدرسة، الآن سأعلمك أشياءً يجب تعلمها لتنجح في الحياة، الدرس الأول:

الحريّة أثمن من الرغيف

٤٤

- ابن الحرام، لقد سرق الحمار.

قطع الدرس صراخ أحدهم، خرج وسام ليعرف ما الخبر. كان العم درويش، والذي يخيِّم طويلًا في الأحراش رفقة أغنامه، مغتاظًا جدًّا. احتشد الناس عند باب غرفة أحمد، كانوا واثقين بأنه لصٌّ، من يقترف الخطيئة تسهُل عليه السرقة.

تكوَّر على نفسه مرتعدًا، بكى وأقسم بأنه لم يسرقه، احترق قلب وسام لما رأى دموعه، اكتشف فيه قلبًا طيّبًا مصابًا بالكثير من الجراح، كحال كل الطيبين، أرغى وأزبد، همَّ بالخروج لتلقين العم درويش درسًا لا ينساه. توقف عند عتبة الغرفة، تريَّث قليلًا، قرَّر استخدام عقله، فاستخدام القوة سيُزيد الأمور سوءًا، خصوصًا أنه من ديانة مختلفة، سيُستغلُّ هذا الاختلاف لتأجيج النيران، كلام المختلفين ثقيل ويُفسَّر على غير ما يُراد...

- قال إنه وجده في الحرش يا عم درويش، اهدأ اهدأ، انظر لحمارك لقد تحسَّنت صحَّته.

سرى بين الحشد ضحكٌ خافت، لولا أن وسام مختلفٌ لكانوا ضحكوا بصخب، اقترب العم درويش من حماره، شدَّ قطعة القماش ومزَّقها...

- قطعة قماش مهترئة توثقك، وجنزير غليظ تفلت منه.

ابتدر العم درويش حماره معنِّقًا، خرج صوت العم مصطفى من بين الحشد:

- أطعِم الفم تستحِي العين يا درويش.

قهقه الحاضرون، باستثناء فوزي، الذي كان ينظر إلى وسام ومجدي بعيونٍ مُحَمَّرَة إثر غضبٍ شديد يشتعل في كبده، تجاهل وسام نظراته، بينما خاف مجدي ولاذ بأخيه الأكبر.

انفضَّ الجمع بعد أن غصب العم درويش حماره على المشي، ما عدا فوزي، الذي ما إن غادرِ الجميع حتى اقتحم الغرفة. كان ثلاثتهم جالسين، وكان وسام يحاول التسرية عن أحمد بعد ما جُرِحَ موضع جديد في قلبه...

- طوال عمري وأنا أقول إن الكلب لن يلد إلا الكلاب.

اختبأ مجدي خلف وسام، كانت نظرات فوزي تحرق وجه أحمد...

- أقرباؤه وأبناء دينه يتخلَّون عنه، وأنتم وأمكم تساعدونه.

- وماذا في ذلك يا عم؟

سأله وسام بصوتٍ واثق...

- أنت تعلم ماذا في ذلك يا وسام، وإن كنت لا تعلم، اسأل أمك.

- أرجوك يا عم، لا تتحدث عن أمي.

- من لا يغار على دينه لا يغار على شيء يا وسام، وأعتقد أنك لا تأبه لا بدينك أو بأمك.

- إن الدين هو من يأمرنا بفعل هذا، الدين وُجِدَ ليزرع الرحمة في القلوب، ليوحِّد البشر، ولكن الناس يفهمون من الدين ما يتوافق مع قناعاتهم، أما ما يخالفها، فهو بالتأكيد، ليس من الدين في شيء.

- أيها الأحمق، لو تسنح لهم الفرصة لقتلونا بلا رحمة.

- وما الذي يمنعهم؟

- الخوف من العقاب.

- أنت مخطئ يا عم، ليس الخوف ما يمنعهم، لقد اعتادوا وجودنا بينهم كما اعتدنا وجودهم معنا، ولكن قلوبنا ليست سليمة، لو تَصفى القلوب لذابت الحواجز ولعشنا معًا بمحبة وسلام للأبد.

- إنك جاهل يا وسام، برغم كل التعليم الذي حصَّلته لا تزال جاهلًا، ألم تقرأ التاريخ؟ اقرأ عن الفظائع التي ارتكبوها بحقّنا.

- لقد قرأت، ولكن يا عم، وجدت في التاريخ جرائم اقترفناها بحقّهم أيضًا، ووجدت أننا عشنا ردحًا من الزمان معًا في سلام، حتى إنني وجدت عددًا لا بأس به منَّا التحق بجيوشهم في فترات مختلفة، وقرأت مرةً وثيقةً تُدعى العهدة العمريَّة، أسمعتَ بها؟

- لقد يئستُ منك منذ زمنٍ طويل، ولكن أنت، أنت أيها الفأر، ألم تعدني بأنك ستتوقف عن مرافقة هذا؟ لا بأس يا مجدي، سنتفاهم لاحقًا.

كانوا يتحدَّثون وكأن الأمر لا يخصُّه، لا يعلمون مدى الألم الذي سبَّبه كلام فوزي القاسي له، كان صامتًا ساكنًا، بيد أنه من الداخل، يحترق.

- سأكلِّم أباكما، إن لم يتدخَّل، سأفعل عندئذ ما لا يسرُّه ولا يسرُّكم.

أنهى فوزي تهديده وخرج. ران الصمت قليلًا عقب رحيله، حتى قطعه وسام:

- لا بأس، دعونا نكمل حديثنا... الدرس الثاني:

الكرامة هِبَة من الله وكل من تُسوِّل له نفسه سلبك إياها: عدوٌّ.

٤٥

كان يخشى النبذ، الرفض واللفظ من الجميع، إلا أنه حظي بصديقين طيّبين، وعداه أن يعيناه ويقفا إلى جانبه أبدًا. عجيبة هي الحياة، من كان يصدّق أن ابنيْ العم نعيم، اللذين طالما تجنَّب الاختلاط بهما، كما يفعل الجميع، باتا صديقيه المقرَّبين.

أخذ يفكِّر في كلام وسام عقب رحيلهما، إن كان ما قاله صحيحًا، فإنه عبدٌ موثق بسلسلةٍ خفيَّة، كما أن جميع سكان القرية باستثناء ما يُعدُّ على الأصابع، أعداء.

سمع نقرًّا خفيفًا على باب الغرفة أخرجه من بئر أفكاره، ظنَّ الطارق مجدي، انشقَّ الباب الخشبيُّ مُصدِرًا صريرًا مرتفعًا، وقف في العتمة رجلٌ طويل ضخم الجثة، ارتجف قلبه من الخوف، شعر بكتلةٍ صلبة تُغلق حلقه، تمنعه التنفُّس والصراخ، كلمَّا حاول، فشل.

دخل الرجل، شهق حينما رأى وجه العم سلطان، كانت ملامح وجهه تبدو مختلفة، فيها شيءٌ من راحة وشيءٌ من ندم، اقترب وجلس جواره...

- كيف حالك الآن؟

سأله العم سلطان بصوتٍ مجروح.

- الحمد لله.

- لقد فعلتها، من أجلك ومن أجلي، فعلتها ولستُ بنادم.

التزم الصمت، لم يجد ما يقول، فأردف العم سلطان:

- لم تستطع الشرطة القبض عليَّ حتى الآن، إنني أختبئ في مكانٍ لن يستطيعوا الوصول إليه، وغدًا سأهاجر من هذه البلاد اللعينة. تمكَّنت من الحصول على جواز سفرٍ مزوَّر، سأهرب من هذه البلاد التي قتلتني منذ كنت طفلًا، قتلتني بلا ذنب أو سبب، سأهاجر، سأذهب إلى بلد لا أحد يهتم فيه لأمر أحد، بلاد لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالعمل والإنجاز، بلاد تحترم الإنسان ويظل في نظرها إنسانًا مهما اقترف من خطايا، هذه البلاد مقبرة، مقبرة لا أكثر.

سكت العم سلطان بعد أن نال منه التعب، كان يبدو مرهقًا، وكأنه لم ينم منذ زمن. دار بعينيه في الغرفة، كان حلقه جافًّا، بحث عن ماء ليشرب، رأى جرَّةً مصنوعة من الفخَّار، مدَّ يده، عبَّ من الماء حتى ارتوى. أعطاها لأحمد، فهز رأسه بأنه ليس عَطِشًا...

- لا تخف يا صديقي، سأعمل على جليك، لن أدعك تعيش في الجحيم للأبد، سأنقذك، أعدك أنني سأعمل كل ما في وسعي لأنقذك في أسرع وقت، تركت لك نقودًا، احتفظ بها جيدًا، لا تنفق منها قرشًا واحدًا، ستلزمك، حتى الخروج من هذه البلاد يحتاج إلى ثروة. عرفتُ أن الشرطة جاءت لاستجوابك، أخبرني ماذا حدث؟

- لا شيء.

- هل أخافوك؟

- قليلًا.

- لا بأس، ربما يعودون لزيارتك مجدَّدًا، عليَّ الذهاب الآن، ادعو لي بالنجاح والنجاة.

٤٦

اشتكى فوزي لشقيقه نعيم سلوك ابنيه المشين، أجَّجَ العصبية في قلبه، طالبه بالتدخُّل فورًا. كانت الخالة فريدة تغلي مثل ماء في إبريق فوق نار، ثم لم تعد تطيق الصمت، فار الماء...

- وما علاقتك أنت بأبنائي، انظر لأولادك.

استشاط فوزي غضبًا، امتقع وجهه، صرخ بصوته الأبحِّ:

- لم يبق إلا أن تتدخل النساء في شئون الرجال.

- حين يأتي أحد على سيرة أبنائي، يجب أن أتدخَّل.

- تحدث يا نعيم، هل أنت راضٍ عمَّا يحدث؟

كان العم نعيم بارد الأعصاب بطبعه، على عكس شقيقه تمامًا، لكن إلحاح فوزي دفعه لطرد الخالة فريدة، ثم وعده بأن وَلَدَيْه سيتوقفان عن زيارة المسلم، اعترى فوزي شعور بالراحة، لقد انتصر، ولكن على مَن ولصالح من؟ فكَّر قليلًا فانتابته الحسرة؛ كان يسعى لانتصارٍ أكبر.

كان وسام قد غادر إلى العاصمة، لم يشهد التطوَّرات الأخيرة. انتظر مجدي مجيئه بفارغ الصبر، نجح أبوه في منعه من زيارة أحمد، كان العم نعيم يجلس فوق سطح البيت ينتظر عودة مجدي من المدرسة، وفور رؤيته يشير إليه كي يدخل، يسجنه حتى صباح اليوم التالي. وهكذا انقضت ثلاثة أيام دون أن يرى أحمد. ولولا أن لا شيء يفلح في ثني الخالة فريدة عن رأيها، لربما مات أحمد خائفًا جائعًا وحيدًا...

ركض مجدي نحو وسام حين رآه يدلف إلى البيت، كان يذرع السطح مترقِّبًا قدومه، وسام بالنسبة إليه أكثر من مجرَّد أخ، إنه أخٌ وصديق ومُعلّم وقدوة. روى له كل الأحداث التي جرت منذ غادر وحتى هاته اللحظة. هدَّأ وسام من روعه، طمأنه أن الأمور ستكون أفضل ممَّا يتمنى.

كان أحمد هو الآخر ينتظر زيارتهما، قالت له الخالة فريدة أن لا شيء سيمنع وسام من زيارته، وما دام وسام سيأتي فلا بُدَّ أن يرافقه مجدي. تناهى لسمعه صوتهما فاستخفَّه الفرح...

- سنأتي بعد قليل لزيارتك يا أحمد.

صرخ مجدي وسط ضحك وسام، ودَّ أن يردَّ عليه، غير أن الصمت، صار رفيقه الأوفى، حتى من وسام ومجدي والخالة فريدة أيضًا.

تحايل وسام على أبيه، أقنعه أنه ليس فيما يفعله أي عار، كان قويَّ الحُجَّة، وافق العم نعيم على ذهابهما، ولكن بشرط أن يستترا ولا يدعا عمَّهما فوزي يراهما، فهو في غِنَى عن دروس الأخلاق التي سيمطره بها. قبَّل وسام رأس أبيه، فعل مجدي مثله، ثم يمَّما نحو غرفة أحمد، وقُبيل خروجهما من الباب سمعا صوت الخالة فريدة تدعوهما للتمهُّل، أعطتهما صينيَّةً عليها طعام.

دخلا الغرفة، غشيته البهجة. جاهد كثيرًا ليمنع دموعه من الانسكاب من عينيه المغرورقتين، أبى تناول الطعام في حضرتهما، وضعا الصينيَّة جانبًا، ابتدره وسام بالسؤال عن أحواله...

- الحمد لله.

- حدِّثني عمَّا فعلت.

- لا شيء.

صمت قليلًا، استجمع شجاعته، ثم قال بصوتٍ مرتجف:

- حدث شيء.

٤٧

انقطعت أخبار العم سلطان، ظل أحمد حبيس غرفته، لا يخرج إلا للحمَّام فقط. داوم وسام ومجدي على زيارته، هيَّأه وسام للغربة في حال صدق العم سلطان وعده، أخذ يبثُّ فيه الإنسانيَّة التي فقدها، بذر في نفسه القيم التي ربما تقيم أود كرامته يومًا ما، ربما يستعيد كرامته وحرّيته، ربما يشفى من الجروح، ربما ينسى ويعيش حياةً طبيعيَّة، ربما ينجح في الخروج من الوحل الآسن الذي وُلِدَ فيه...

الإنسان يبقى إنسانًا مهما اقترف من خطايا... لديه الفرصة أبدًا للعودة... في داخله نورٌ دائم الإشعاع... لا أحد يستطيع إطفاءه سواه... هذا النور خفت كثيرًا... ظنَّ أن الظلام الدامس سيبقى مقيمًا فيه حتى يرحل، سيظلُّ سجين الغرفة النتنة، وعمَّا قليل سيأتي الموت بمنجله ويحصد عنقه مثلما حصد ذاك الطبيب قدمه عن طريق الخطأ...

كان ابن الطبيب قد أصيب بمرضٍ غامض وأوشك أن يموت، هُيّئَ لـسليمان أن ما يحدث لابنه ما هو إلا عقاب له على ما اقترفت يداه من خطايا، وذات ليلة رأى في المنام وجه فتى صغيرًا محتقنًا، كان يزمجر بغضب بكلماتٍ لم يفهمها، اقترب الفتى منه وهو يمشي مشيةً عرجاء. لقد رأى هذا الوجه، ولكن أين؟ فكَّر كثيرًا، نبش ذاكرته حتى استخرج منها قدمًا مبتورة، عرفه، إنه الفتى الذي دمَّر حياته. نهض من نومه مفزوعًا، هرع إلى المستشفى، بحث في السِّجلّات عن عنوانه، وفي النهاية وجده.

كان قد نسي الطبيب مثلما نسي حلمه، مثلما نسي كنيته، مثلما نسي أباه، مثلما نسي أمه، مثلما نسي البستان، صارت كلُّها بالنسبة إليه أشياء بعيدة، بعيدة بُعْدَ السماء، ولا يستطيع أن يقفز ليلمسها، لم ينجح في ذلك وهو يملك قدمين، فهل سيفلح بقدمٍ واحدة. نصحه وسام بالتوقُّف عن التفكير في أشياء مستحيلة الحدوث، على الإنسان التركيز على القدرات التي يملكها، عليه معرفة حدوده وطاقته، لئَلَّا يقع فريسةً للوهم. ثمَّة فرقٌ بين الأحلام التي بإمكان الإنسان تحقيقها، والأوهام التي لا تجلب سوى الألم والمرض. انصاع لنصائح وسام وتوقَّف، دفنهم في إحدى زوايا ذاكرته آملًا في رقودهم بسلامٍ إلى الأبد.

جاء الطبيب ليعتذر، كان يرتجي أن يمنحه أحمد المغفرة، يطمع في أن تكون مغفرته الدواء السحريَّ الذي يشفي ابنه. حتى الأطباء يؤمنون حين يعجزون عن مداواة فلذات أكبادهم، يؤمنون بجدوى المغفرة، يؤمنون أن ثمَّة أمراضًا لا يستطيع الطب علاجها، لا بُدَّ من دواءٍ سحريٍّ، ربما يكون الاعتراف، أو الغفران، أو شيئًا آخر جاء يبحث عنه الطبيب.

دخل الغرفة بعد أن أرشده إليها وسام، كان سليمان في أثناء سيره نحوها، يرثي للمكان الذي يعيش فيه ضحيَّته، غرفة صغيرة في طرف قريةٍ منسيَّةٍ، غرفة تبدو من الخارج أقرب إلى زريبة، أبقيَ أحد يعيش في بيوت من حجرٍ وطين؟! سيدفع مبلغًا من النقود لهذا الفتى فيصفح عنه، إنه وحيد مثلما أخبره وسام، ستُذهِب النقود عقله، من المؤكد أنه لم يمسك في حياته أكثر من مبالغ زهيدة.

لقد جاء ليشتري المغفرة مثلما اشترى شهادة الطب.

لسوء حظ الطبيب أنه جاء عصر يوم الخميس، فصادف وسام العائد من العاصمة، ولما سأله عن أحمد حسن المحاردة، استفهم عن حاجته منه...

- عالجته منذ فترة وجئت أطمئن عليه.

ذهب وسام إلى بيته ليضع الحقيبة ويسلِّم على أهله، ثم قصدا الغرفة على وجه السرعة، صُعِقَ الطبيب من مشهد الغرفة؛ كانت غرفة لا تصلح حتى حظيرة للحيوانات. ظلَّ واقفًا يحدِّق إلى الفتى المنكمش فوق فراشه. لم يتعرَّف على الطبيب بدايةً، ولكن بعد تدقيق في وجهه، وخزته قدمه اليسرى فشكَّ أنه عرف. أكَّد الطبيب ظنونه...

- أنا الطبيب الذي أجرى لك العملية، جئت أطمئن عليك.

كان صوته متهدِّجًا حزينًا، وكأنه أجهز على جريح فقتله، كان يمكن لهذا الفتى أن يعمل وهو بقوته، ولكنه الآن سيبقى أسير الصدقات ومعاش وزارة التنمية الذي لا يُسمِن ولا يغني من جوع، لن يحتمل البقاء هنا طويلًا، فليشترِ المغفرة وليرحل سريعًا...

لم يدرِ أحمد ماذا يفعل، هل يدعوه للجلوس، أم يعتذر منه. خلع الجورب البالي عن قدمه دون أن ينبس. اقترب الطبيب، اجتهد في كتم أنفاسه بعد أن آذته الرائحة المنبعثة من القدم، نظر إليها...

- إنها بخير.

تحدَّث بعد أن جرع ريقه، استعمره الخوف لمَّا نظر في عيون أحمد، خُيِّلَ إليه أن اللعنات تخرج منهما، أشاح بوجهه، ثم أردف:

- في الحقيقة جئت أصارحك بشيء.

نهض وأدار ظهره لأحمد، أخرج النقود من جيبه...

- لقد حدث خطأ.

نشر الصمت عباءته برهة، كان أحمد تائهًا لا يدري ما الذي يقوله أو يريده الطبيب، أحنى الطبيب رأسه. سحب نفسًا طويلًا، ثمَّ أرسله مع كلماتٍ حادَّة كنصول خناجر:

- قدمك لم تكن بحاجة للبتر.

دخل وسام ومجدي فور نطق الطبيب للجملة، لم يصدِّقا ما سمعاه، طالبه وسام بتكرار ما قاله. قبض الطبيب على النقود وأخفاها في كفِّه، أيقن أن الأمور على وشك الخروج عن السيطرة، ولكن لم يعد هناك مجالٌ للتراجع، فصارحهم بكلِّ شيء...

- أنا مستعدٌ لتعويضك بما تشاء... أرجوك اغفر لي.

بماذا وكيف سيعوِّضه؟ هل يستطيع منحه قدمًا كتلك التي خسرها؟ هل بإمكانه إحياء الأحلام التي ماتت؟ يقول إنه سيعوِّضه بالنقود، إننا مُقبِلون على زمنٍ سيصير الإنسان فيه أرخص الموجودات على سطح البسيطة، حتى إنه لن يعوَّض بشيء، ولا حتى كلمة، سيغدو مثل خطأ اقترفه قلم رصاص، تعبر فوقه المِمْحاة فيختفي، هكذا ببساطة، يختفي.

لعلَّ المصائب الجمَّة التي حلَّت بأحمد أفقدته دهشته، وكأنه يسمع تقريرًا إخباريًّا من مذياع سعيد، تقريرًا يخصُّ أحدًا غيره. كان ساوره الأمل لما انكبَّ الطبيب على قدمه يفحصها، خاله سيبشِّره باختراع علاجٍ جديد يُعيد إليه قدمه، وبعد أن اكتشف سرَّ الزيارة، تلاشى الأمل، الأمل المُوجِع، ورجعت الحقيقة لتتربَّع على عرش قلبه، الحقيقة المُوجِعة.

أما وسام، فكان غضبه جامحًا، فشل في السيطرة عليه، أسمع الطبيب كلامًا قاسيًا، طالبه بكتابة اعتراف بخطئه، رفض في البداية، ثم أذعن، لا خوفًا من وسام، بل طمعًا في نجاة ابنه...

حمل وسام الاعتراف إلى نقابة الأطباء. حقَّقوا في الموضوع، ولما تأكدوا، أوقفوا الطبيب عن عمله. كان إيقافًا مؤقتًا، ففور نجاة ابنه، لجأ الطبيب إلى أحد أقاربه، لواء في المخابرات، على مضض، لولا أنه كان مضطرًّا لما فعل، فبذلك يقدِّم اعترافًا أن قريبه أفضل منه، نجح اللواء في تخفيف الحكم من الإيقاف إلى النقل التأديبي، نقلوه إلى مستشفى أحدث وأكبر، وقريب من بيته، كما كان يتمنى دائمًا.

٤٨

كانت نيران الغضب تتأجَّج في داخله، اجتاحته رغبةٌ في الانتقام، ولكن ممَّن وكيف؟ إنه عاجز، وكل ما يحلم به، أن يدعه الناس وشأنه، الناس الذين لم ينله منهم سوى الأذى والتقريع والسخرية، لم ينفكّوا يتحيَّنون الفرص للانقضاض عليه وسلقه بألسنتهم الحادَّة...

كان يهمُّ بفحص رجولته مرةً أخرى، وجد في هذه العادة تسريةً مؤقتةً ولذَّةً قصيرة يهرب بها من الحزن الذي اتَّخذ من جسده لباسًا، ولكنَّ صوت صرير الباب أضمر الرغبة في نفسه، فوجئ بفوزي يقتحم غرفته، تأكد أن ليس فيها سوى هذا الفتى الخائف، أغلق الباب ودخل.

خُيّلَ إليه أن فوزي جاء ليضربه أو يقتله، همَّ بالصراخ وطلب النجدة، ظل صوته حبيس حلقه ولم يخرج، دنا فوزي منه. كان يترنَّح. أشعل سيجارة، ثم تحدَّث بلسانٍ ثقيل:

- الماء والنار لا يلتقيان يا صغير، لأنهما حين يفعلان، يقتلان بعضهما بعضًا.

لم يفهم غاية فوزي من هذا الحديث، ترقَّب خروجه من الغرفة بفارغ الصبر. لقد باتت الوحدة تريحه في الآونة الأخيرة، اعتادها واعتادته، وجد فيها راحةً وطمأنينة. كان محنيَّ الرأس، هزَّه ليوهم فوزي أنه يوافقه الرأي...

- إننا نمثِّل، نؤدي أدوارنا حين يقف بعضنا أمام بعض، ولكن حين نختلي بأنفسنا، تظهر الحقيقة، أليس كذلك؟

هزَّ رأسه تارةً أخرى أن أجل، إنني أوافق على كل ما تقول، أرجوك أكمل بسرعة واذهب...

- نحن نكرهكم وأنتم تكرهوننا، وعاجلًا أم آجلًا ستظهر الحقيقة، الشمس لا تُغطَى بغربال.

مجَّ من سيجارته، نفث الدخان نحو أحمد الذي وسوست له نفسه بطلب سيجارة تهدِّئ من روعه، غير أنه فضَّل التزام الصمت...

- هل تكرهني يا صغير؟

هزَّ رأسه أن لا، أطلق فوزي ضحكةً طويلةً صاخبة، ثم قال بعد أن تماسك نفسه:

- حتى أنت تكذب، لا شيء تكرهه في هذه اللحظة أكثر مني.

كان مُحِقًّا، فلو أنه يملك القوة لكان أمسك بتلابيبه وجرَّه إلى الخارج جرًّا، بيد أنه ضعيف، والضعيف لا يستطيع الإفصاح عن كرهه، إنه يكبِته في نفسه، ولكن إن سنحت له الفرصة، وإذا عجز عن المسامحة، فسيكون انتقامه فظيعًا...

- بماذا تفكر يا صبي؟ ربما إنك تفكر في وسيلة للخلاص مني، أو ربما تتساءل ما الذي دفعني لزيارتك؟

أشعل سيجارة جديدة من عقب الأولى، سحب منها أنفاسًا متتابعة، زفرها ببطء ثم تحدَّث بنبرة مختلفة، نبرة فيها شيءٌ من الصدق والندم...

- قد لا تصدِّقني، ولكنك ربما تكون الفرصة التي انتظرتها كي أنتقم، لا منكم فقط، بل من أخي وعائلته.

حدَّق فوزي إلى الجدار، اخترقه بعينيه ونفذ منه إلى ماضٍ بعيد. تذكر كيف كان يخسر كل شيءٍ لصالح أخيه. كان نعيم دائمًا صاحب الحظ السعيد؛ حظي بمحبَّة والديه ودلالهما، كان المفضَّل لديهما، مع أن لا شيء مميَّزَ فيه، كان مجرَّد طفلٍ بليد، أما الخسارة الكبرى التي مُنِيَ بها أمامه فكانت، فريدة...

فريدة الصبيَّة الجميلة التي أحبَّها فوزي بصمت. كان يراقبها من بعيد، يُدقِّق في جسدها اللدن، كان حين يسمع ضحكتها يكاد يغشى عليه، ولما أخبره نعيم أنه سيفاتح أهله كي يخطبوها له أسقط في يده، أدرك أن نعيم سيفوز بها، لذا فضَّل التراجع. لم يبُح بسرِّه، أخفاه في قلبه، لا أحد علم به، سوى الخالة فريدة، حدسُ الأنثى لا يخطئ في هذه الأمور. تجرَّع مرارة هزيمة جديدة أمام شقيقه، كانت

الخسارة هذه المرة فادحة. توالت الهزائم؛ أنجب شقيقه ذكرين، أما هو فلم يأته الصبي إلا بعد ثلاث فتيات قبيحات، ولدا شقيقه ذكيَّان جدًّا، بينما أبناؤه أغبياء مثل أمهم. كان يستشيط غضبًا كلما سمع أقرباءه يُثنون على أبناء شقيقه...

- إنه ليس أفضل مني، ولم يكن يومًا كذلك.

كان فوزي يخاطب الجدار، أو أحدًا خلفه...

- سأثبت لهم أنه وعائلته خائنون، إنهم يتقرَّبون من أعدائنا، وفي القريب العاجل سيتَّبعون ملَّتهم.

خضَّ رأسه ثم حدج أحمد الذي ذكَّره بشقيقه الأبله، كان يتصبَّب عرقًا من الخوف والحرِّ...

- لم يتوقَّفا عن زيارتك، أليس كذلك؟

لم يجب، كرَّر فوزي سؤاله بنبرةٍ أعلى...

- أليس كذلك؟

ولما ظل صامتًا، نهض ومدَّ يده إلى رأسه، أمسكه وهزَّه كثيرًا، انفجرت دموعه. همس صوتٌ في أذن فوزي أن احذر، إن صرخ فسيقتلونك في أرضك لا محالة، إنه يعلم جيدًا مغبَّة مهاجمة مسلمٍ في بيته. استعاد شيئًا من وعيه، رفع يده عن رأسه. لماذا جاء إلى هنا؟ وما الذي قاده لهذا الحديث؟ تناهى إلى سمعه نحنحة أحدهم، فولَّى هاربًا.

دسَّ رأسه فور مغادرة فوزي في الفراش وراح يبكي وينوح ويشتم... ويتوعد.

٤٩

صبيحة اليوم التالي لزيارة فوزي، سمع صوت أحدهم يدعوه كي يذهب إلى البريد، ثمَّة رسالة باسمه من أمريكا. خمَّن أن الرسالة قد تكون من العم سلطان، انتظر مجيء مجدي أو وسام. احتار، تُرى أيخبرهما بزيارة فوزي له أم يُحجم خوفًا من نشوب المشاكل بينهم؟

دخل مجدي الغرفة بعد عودته من المدرسة، حدَّثه عن الرسالة، فنهض من فوره وركض إلى البريد. رفض العم حنفي - مدير البريد - تسليمها لمجدي إلا بعد أن ترك بصمته عند خانة المستَلِم، ولولا معرفته بعجز أحمد لما كان وافق على أن يستلمها غيره. حملها وطار إلى الغرفة، فضَّها وقرأها، وكما توقَّع أحمد، كانت من العم سلطان، أبلغه فيها بضرورة تزويده بشهادة ميلاد وصورة عن جواز السفر في أقرب وقت، سيوفي العم سلطان بوعده، سينقذه من الجحيم.

نجح وسام في استصدار جواز سفر وشهادة ميلاد حديثة، أخذ عنهما صورة وأرسلها إلى العم سلطان، شجَّعه على الذهاب، نصحه ألَّا يتردَّد ثانية واحدة في ذلك، هناك بلاد أخرى وحياة أخرى، هناك الأحلام مسموحة والحرية طليقة والعدالة متوفِّرة، «سيصنعون لك قدمًا، ستسير مجدَّدًا، ستعتمد على نفسك، ستدرس وتلتحق بالجامعة، لن يحرمك أحد حقَّك، ستحصل عليه دائمًا تامًّا غير منقوص».

نمت الأحلام ثانيةً في نفسه، سيهرب، لن يلتفت خلفه، سينسى كلَّ ما حدث له هنا، سيولد من جديد، سيكون إنسانًا آخرَ، لن يسمح لأحدٍ بإهانته، سيتعلَّم كيف يدافع عن نفسه، سيتخلَّص من هذا الخوف الذي يعصف بصدره، سيحبُّ فتاةً لا تأبه بقدمه المبتورة أو خطيئته. حدَّثه وسام عن تقبُّل الناس هناك للمختلفين، المختلفون عندهم ليسوا مختلفين، إنهم أناس طبيعيون، يعيشون ويحبون ويتزوجون وينجبون، لا يُقصَون من الحياة لأنهم فقط مختلفون. الكل هناك قادرٌ على ممارسة حياته كيفما يشتهي ويحب.

مدَّ يده أسفل الجدار المتآكل، غرف التراب حتى لمس الكيس، أخرجه، اطمأن أن النقود لا تزال على حالها، سيحتاجها كي يهرب، لا شيء بالمجَّان هنا، عليه أن يدفع ثمن نجاته، ولحُسن حظه أنه يملكه، لقد تضاعف بعد أخذِه التعويضَ من الطبيب، متى ستأتي تلك اللحظة التي يصل فيها إلى هناك؟

٥٠

مرَّت ثلاثة أشهر، كان يتجرَّع المرار صابرًا، ثلاثة أشهر من الهبوط نحو قاع الجحيم، ثلاثة أشهر كانت كافية لـفوزي كي ينجح في تنفيذ مخططه؛ شكا عائلة أخيه إلى السُّلطات العليا، ولمَّا استدعوا العم نعيم والخالة فريدة وابنيهما، لم ينكروا، أقرُّوا بمساعدتهم لأحمد، ولكنهم أقسموا بأنهم لا يريدون تغيير دينهم، إنها محض وشاية من مُغرضٍ كذَّاب. أنزلوا بهم العقاب، كان عقابًا مُخفَّفًا؛ الترحيل من القرية إلى مكانٍ صار بمثابة تجمُّعٍ لهم، أرضٍ ليسوا أقليَّةً فيها، بل أغلبيَّة، عليهم الانتقال للعيش هناك وإلا حدث ما لا يُحمَد عُقباه.

كانت الخالة فريدة تبكي بصوتٍ مرتفع في يوم الرحيل، كانت تشدو مواويلَ حزينة بصوتها المكلوم، آخر ما كانت تتوقعه هو الخروج من القرية، طالما تمنَّت أن تُدفَن في ترابها كي تبقى قريبةً من كل ما تحب...

يمِّي ويا يمِّي وشدِّي لي مخداتي

وطلعتْ من البيت وما ودعت خيَّاتي...

كان هو الآخر يستعدُّ للهجرة، وصلت الأوراق من العم سلطان. خرجوا معًا من القرية... كان رحيل عائلة الخالة فريدة بتلك الحالة المزرية، آخر تذكار يُهديه إياه وطنه.

٥١

وصل أمريكا بقدمٍ مبتورة وجراحٍ كان من المحال شفاؤها، استقبلته الأرض الغريبة وحَنَت عليه، منحتنه قدمًا شبه طبيعيَّة وعيشةً كريمة. التحق بمدارسَ ليست كتلك السجون التي في بلده، تعلَّم، اكتشفوا فيه إنسانًا قادرًا على صنع شيء.

داووا جراحه كلَّها، جراح الجسد والنفس، عرفوا أنه اقترف الخطيئة ومع هذا لم يقصوه بعيدًا، بل على العكس تمامًا؛ حملوه برفقٍ من الطرف القصيِّ وصهروه بينهم. قالوا إنه إنسان، والإنسان يخطئ، وخير الخطائين التوابون. لم يكن كلامًا يقولونه بأفواههم فقط، كانوا يطبِّقونه، يمارسونه بتلقائية، دون الحاجة للكثير من التنظير الفارغ.

رعاه العم سلطان الذي افتتح محلًّا تجاريًّا، أتبعه بثانٍ، ثم ثالث ورابع. تداوى هو الآخر، لكن بريق الندم لا يفارق عينيه، يقول لربما كان من الأفضل ألا تتلطَّخ يداه بالدماء، الدماء حين تعلق بالكف لا تزول أبدًا. يمارس الكثير من أعمال الخير طمعًا في نيل المغفرة، ظل ملاصقًا له، ساعده حتى التحق بالجامعة.

احتضنته الجامعة بالمجان، أعطوه منحة، قالوا إنه استحقَّها. لم يُخيِّب ظنَّهم، اجتهد كثيرًا كي ينتقم من تلك الأيام السوداء. مات مارادونا في داخله، بيد أن عالِمًا حلَّ مكانه، عالمًا أخذ حقَّه كاملًا دون نقصان، لم يحرموه علامةً أو تقديرًا يستحقُّه. اعترفوا بألمعيَّته وأحقيَّته في الفوز بملكة جمال الجامعة... براءة.

براءة الأمريكيَّة من أصولٍ عربيَّة، هي الأخرى هربت من الجحيم، كان الجحيم يصبُّ نيرانه على رءوس أهلها دون أن يعلموا لمَ، ما السبب الذي يدفع السماء لأن تُمطِرَ براميلَ متفجِّرة وصواريخَ بدل المطر الذي كان يهطل دائمًا فرحًا؟

كانت مكسورة مثله، رمَّما ما بقي من هدمٍ في روحيهما، هدمٍ لا شيء سوى الحب كان قادرًا على ترميمه. ماتت جميلة، جميلة التي تخلَّت عنه مثلما فعلت بلاده، ماتت في قلبه، صارت ومضًا ما إن يبرق أمامه حتى يبتسم ويتركه يرحل بسلام، لا يُجهِد نفسه كي يُمسك به...

تخرَّج في جامعة هارفارد مع زوجته براءة، وسرعان ما تلقى دعوةً ليُكمل الدراسات العليا فيها، قالوا إنه كنزٌ من الغباء التفريط فيه. حصل على الدكتوراه في الطاقة النوويَّة، وهو الآن الرجل الأول في الوكالة الدوليَّة للطاقة النوويَّة، لم يكن أول عربيٍّ يستلم هذا المنصب، سبقه إليه الدكتور عاهد المماري...

التقاه، عرض عليه مشروع إفراغ الوطن العربيّ من ساكنيه، سأله عن رأيه، نصحه الدكتور عاهد باتِّباع الصوت الذي في داخله، إن كان الخلاص من الناس خيرًا لهم، فعليه ألا يتردَّد، أما إن كان غير ذلك، فليعارض القرار مهما كلَّفه الثمن...

عُرِض عليه القرار مرتين فتركه دون خاتمة...

والآن يجب عليه أن يختار...

- دكتور أحمد، هل نوقف الجهاز؟

٣

٢

تمّت